

تقديم

يشتكي العرب من قوقعة إبداعهم أو غيابه في غير دياره، إن كان وجوده فيها لا يشبه الغياب. وبينما نرى «أقطارنا» تتهافت على ترجمة الابداع الأجنبي بصفة عشوائية مهولة، فإن ذلك التهافت يكاد لا يوجد -ولو نسبيا- على نقل الروائع الابداعية العربية إلى اللغات الأجنبية. نقول هذا لا لاستجداء أية شهادة في الجودة. أو استهداء لقيمة الجودة فهذا مرض آخر نحن مضايون به منذ أجيال وأجيال.

إن ما كنا نسمعه - ومازلنا نسمعه - من أن الإبداع العربي لا حظ له - معرفة ورواجا - في الأقطار العربية وغيرها لا نستيعما // الإبداع القصصي. الأقرب إلى الرواج والانتشار بين الشعوب. فعلى من تقع مسؤولية هذا التقصير؟! إذا كنا صرحاء مع أنفسنا. وغير ممتشائمين فعلينا أن نتجه ونلتفت إلى ناحيتين في هذه المرة على الأقل:

الأولى أن إبداعنا غائب حتى في عقر داره! فبالإضافة إلى الحواجز والمعوقات لرواجه بين الأقطار العربية «الشقيقة» فإنه في مهده يفقد القارئ المطالع والمثقف الواعي كي «يستهلك» هذا النوع من الانتاج الذي - رغم قلته - هو أقرب إلى البوار بالنسبة لما عليه الأوضاع في البلدان المتقدمة والمتطورة. ولو قارنا بين إنتاجنا الإبداعي

- في عموم الوطن العربي - بما يصدر في بلدان
أوروبية لا تصل ملايين عدد أصابع اليد الواحدة ،
فاننا واجدون - لا محالة - ما يخلطنا تساوقا مع
الصفوف الدائمة لشراء كتب الابداع عندهم وعلى
مدار السنة، ومع الفراغ الكبير الذي نجده أمام
باعة الكتاب عندنا.

الثانية انعدام سياسة قارة - قومية أو قطرية
- خاصة أو عامة - لتنظيم عملية نقل الابداع
العربي إلى أهم اللغات في العالم شرقية وغربية.
في تونس - مثلا - استبشرنا كثيرا بانشاء
«المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق
والدراسات». ورغم مرور السنوات العديدة على
أنشائها فإن خطة الترجمة للابداع التونسي المعاصر
حظها قليل جداً إذ لا نكاد نجد غير « أغاني الحياة »
و «مذكرات» الشابي و «سهرت منه الليالي» لعلي
الدواعجي.

والملاحظ أن مجموعة «سهرت منه الليالي»
يرجع الفضل في وجودها إلى نادي القصة ومجلة
قصص. فقد صدرت تلك المجموعة ضمن إنجازات
السلسلة القصصية التي أشرف عليها نادي القصة
بالتعاون مع الدار التونسية للنشر، كما فعل مع
آخرين كان إنتاجهم مهما، أو منسيا أو حتى
مجهولا. ومهما يكن فأنها مناسبة سعيدة للفت نظر
هذه المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق
والدراسات حتى تولي عناية أكبر - ولم لا الأولوية
- لنقل إبداعنا العربي إلى لغات أجنبية أخرى
شرقية كانت أو غربية !!

قصص

نهاية الإجازة

كان يتساءل ، يسأل نفسه عن شيء اسمه اجازة. فقد مرت دهور وهو يعمل دون ان يلتقي بهذه السيدة اجازة. غيره من الموظفين يمكنهم ان يتحصلوا دون ان يتوقف العمل. كلهم حلقات في سلسلة اربط هذه بتلك يستمر العمل. احذف هذه وصل الاخرى بتلك. تدور الطاحونة اما هو فقد كان يعتقد انه المجمع الذي يربط الصلة بين الكل. انه مركز الحركة. يتوقف الدوران لو اصابه عطب.

كان شبه واثق من ان المسألة مجرد مزاح فهو عرضة لمثل هذه الحالات فالحل يمازجونه قصد التفكه. والا فما معنى ان يختاروا هذا الوقت بالذات. لا المسألة مدبرة هذه المرة. مؤامرة. سوف يصل الى مكتب الموظف المكلف وهناك يطلبون منه العفو عن هذا الجهل فالقضية كلها ان غلطا وقع فيه احد الكتبة الجاهل.

هكذا كان يحدث نفسه يطمئننها. ولكنها سألته في غير اطمئنان - لو وقع ودخلت في هذه العطلة. فأين ستقضيها ؟ وما هو النشاط الذي ستمارسه لتعوضه بأوقات عملك اليومي ؟ هل ستقضي الوقت نائما ؟ لا بد ان ترحل. ولكن الى اين. انت تجهل كل الامكنة وليس لك من عالم غير هذا المبني.

لم تبق الا دقائق وتفتح الادارة ابوابها وعندها سينجلي الخبر سوف يعتذرون عن هذا الخطأ ولعلمهم يعاقبون مرتكبه. عندها لن يتدخل لطلب العفو فلو ارتكب في حق غيره لكان

من واجبه ان ينحني أمام السيد المدير ليقول له :

- هذا الموظف المسكين مريض لم ينم البارحة فحذره يا سيدي ولا تعاقبه.. اما ان يقع الخطأ في حقه هو فاحرى به ان يهرب الى الحياض ليترك للادارة حرية التصرف في الموظفين الذين يعبثون بمقادير الناس.

وانه لينتظر والوقت يبطئ الخطى فكانه توقف عن السير عمدا.. وانتابه احساس من يترقب كارثة. وفي باطنه توقر وعداء لهذا المبني الذي عاشره العمر كله. فقد اجتاحت غربة ونفور وتدحرجت الكلمات تخرج من صدره منتوفة.

- هذا كل ما تحصلت عليه بعد عناء السنين. من قال لهم اني في حاجة الى الراحة. انا اكره راحة هذه الكلمة وما اشتق منها لا بد ان خللا حصل في عقل المدير. والا فما معنى ان يمنع اجازة لمن لم يتعود عليها ولا هو طلبها واخيرا لا يعرف كيف يتصرف فيها ولا اين يقضيها.

دعك من الهراء. وفكر في المصيبة وقد اوشكت على الوقوع.

هل اقضي هذه المدعوة اجازة في النوم وحظي من النوم اصبح يسيرا. هل امضي كامل الوقت في المقهى حيث تختلط الاخلاق بما لا يجوز وسابقي وحدي انظر الى الناس وانتقد ما يصدر عنهم. وهل يكون ذلك مني جهرة او سرا. لا بد ان استشير احد الزملاء في امرها فلعله يوحى الي بما ينفع. والا فلا مخرج لي من هذا الالم الذي التصق باخر ايام حياتي.

يختل عقل المدير فاصاب انا، هذا عدل لم يسبق ان وزع بين البشر.

الرجل الذي يدعونه عمي... وما عرف بغيره. يعترف وحده بانه موظف. ولا احد يقره على ذلك بداية من المسؤول

الاول الى آخر منظف. ولكن عمي اقحم نفسه هناك ومن زمن لم يعد يذكره غيره. الجميع يعترفون انهم وجدوه هناك من أوجده ؟ هذا ما لا يقدر احد ان يجيب عليه لقد تسلمه من سبقهم مع البنائة وليس مع الاثاث فكان البناء جمع ادواته ونسيه هناك وبتقدم العهد صار عمي يعمل كل ما يكلف به. يحضر الشاي يجلب السفاير. ينظف المكاتب يتكرم على البعض بالزهيد من الاشياء ورغم ان ما يتقاضاه من اجر هو من جيوب الموظفين فانه يسعف بعضهم بالسلفة اخر الشهر. يغطي غياباتهم يتستر عليها.. وبالجملة فقد افلح في ايجاد المكان اللائق بين الجميع.

يتغيب الكل حتى المدير. يمرضون. يأخذون اجازاتهم. وعمي دائم الحضور. لذلك رسمه المدير الاسبق في اطار وحده فلا هو ساع ولا مستكتب ولا منظف. وانما هو عضو دائم الحضور وعمله متواصل لذلك اسف. حين قال له الموظف وهو يناوله الاعلام.

- هنيئا يا عمي لقد وافق المدير على منحك الاجازة الطويلة وفي الوقت المناسب فلو طلبها غيرك لما نالها. لا بد انك خيرت المكان المناسب لقضائها.

قال عمي وهو يتنهد :

- نعم لقد تخيرته ، فانسب مكان للتخلص منها هو ان اقضيها بين القبور اترحم على اموات المسلمين ولان كل شيء مزيف. حديث الموظف ، والورقة والاجازة فعمي موضوع في اطار غير موجود. فلن تجد اسمه في اي سجل اداري وجد هنا فاستمر ولكن قوانين ضبطت جعلتهم يخترعون طريقة للتخلص من هذه الزائدة الدودية. شريطة ان لا تؤذي شعوره، طوى عمي الورقة ووضعها في جيبه وفي اول سلة للمهمات صادفته مزقتها نتفا ووضعها بكل عناية هناك وضحك يودعها وعاد الى مكانه المعتاد فكان الامر يعني غيره.

- اوصلك الاعلام هنيئا يا عمي جاء وقت الراحة بعد تعب العمر.

قال كبير السعادة. وسكت عمي مما جعل الرجل يواصل.
- مالك واجم. لقد سلمت الاعلام بيدي الى الكاتب وقد امضاه المدير بمحضري.

- لقد تسلمته - قال عمي بتبرم - ولكن ماذا يقع لو لم اتوقف عن العمل، ولم اغادر. هل ستضطرون الى طردي. اظن ان هذا لا يجوز في حق عمكم.

- الناس تبحث عن الاسباب الواهية لتتفصى من العمل ولو لبعض دقائق. وتمنح انت اجازة فتحاول رفضها.

قال الرجل ذلك وهو يضرب يدا باخرى مردفا :

- لو كان في الامكان تبادل المراكز لما توانيت عن تقديم هدية لك علاوة على شكري تصرف في عطلتك فالعمر يمر واوقات السعادة لا تنتظر.

وقال عمي بصوت اليائس :

- تريدونني ان اتوقف عن العمل. ها انا افعل ، ولكن لا احد يقدر ان يجبرني على مغادرة الادارة لكم والمبنى لي... انا حجارة في هذا المبنى ابحتوا عنها فلن تجدوها الا بعد ان يهدم البناء كله.. وقد تخفقون في العثور عليها بيسر.

- تعقل يا عمي الادارة والمبنى لك كلها.. ونحن ايضا ولكن..

- ولكن يجب ان اغادر كان هذا ما تقصد

- لا - قال رئيس الحجاب - ولكن..

- كلا. لن اغادر ولن اوليكم ظهري فامكنكم من طعني ومن العبث بالناس. وبالقانون. لا لن اغادر.

لقد كان يظن ان الامور ستتعمل هناك. وان كل المواطنين سيضربون عن العمل.. فكيف تعمل الة انتزعوا

محركها.. وعمي يعتقد انه ذاك المحرك. فحتى الذين يقصدون الادارة لقضاء مآربهم سوف يتخلون عنها اذا لم يجدوه في استقبالهم كعادته وسوف يرفضون التعامل مع هذا المبنى ولو كلفهم ذلك التخلي عن منافعهم.

فهل وقع شيء من ذلك؟ كل ابواب المكاتب تفتح وتغلق. ورقص الحروف على نغمات الالة الكاتبة مستمر. والناس يمرون من هنا وهناك. وصرير جرس الهاتف لا يتوقف ورائحة التبغ والقهوة تنبعث بداية من مكتب المدير وتتجول في الردهات دون احتشام.

وتساءل عمي :

- هل انتهيت فعلا ؟ وبهذه السرعة

- وجاء صوت احدهم فنبهه

- عج على مكتب السيد المدير فقد يحتاجك لآخر مرة. انهم هناك في انتظارك.

وقال عمي في نفسه :

- هل احمل كعادتي الاحترام ؟ ام ارجع له كل نظرات السخرية التي صبها على جسدي. كلا. لن امد له يدي ولن اصفحه حتى لو تزلف فسبقت يده يدي. وحتى لو طلب مني ذلك. فعلام احترامه وكلماته لم يعد لها مدلول في اذني.

لقد كانت علاقة ما تربطني به فاذا هو يتولى قصصها بنفسه دون حياء او خجل بل وبقلة ادب.

وخرج عمي من مكتب المدير مغتاظا يجلد نفسه التي طاولته على اجتياز عتبته.

وللاستماع الى كلمات سكرية تصف رجلا اخر غيره يمكنها ان تطلق جزافا على الجميع الا هو فما في الذي قبل كلمة صادقة. ترى من اين استعاروا له تلك الصفات. وتساءل داخل نفسه.

« اذا كنت كما يدعون فلماذا اضاعوني في الاهمال. لا بد ان هناك خلطا ما. فهم يتحدثون عن رجل آخر وضعوني خطأ في مكانه ».

وعجب من نفسه. كيف قبل كل ذلك دون ان يقول كلمة واحدة نعم ان في عمي لخصالا تقلدها منذ زمن بعيد جلها تاكل واصبح غير صالح للاستعمال ولكنه مصر على التمسك بها عن تطوع وقد يكون غير مقتنع بها ولكنها لازمتها على كل حال.

لكن ان يكون كما قالوا فهذا يستوجب ان يعاد صنعه من جديد.

ولا بدّ لكي افيه حقه ان اقدمه للتعارف. ولكن كيف اخذه فهو ينتمي الى القصر ابرز ما فيه عظم راسه يستدر شفقة من يراه يسير بهذا الحمل العسير. قصير الانف الى درجة ان يتبينه الرائي بعسر. ضيق العينين فلا يظهر منهما الابريق ضعيف. يحسبه المتأمل فاقد البصر او ضعيفه واسع الفم باسنان منخلية ولعل ذلك اجمل ما يجتوي عليه. ولعلي قصرت في وصفه فالاطناب في هذا الباب اثم يستوجب اللوم.

الرجل عمي يعيش حاضره فما من مرة عاد الى الوراء. ويسأل فلا يجيب يقول احيانا انه نسي حتى ما يجري بالامس. انه خلق من نسيان وما باح بسر حياته. فمرة يقول: انه وحيد ابويه. واخرى يتحدث عن شقيقاته فيقول انهن متن جميعا. وحيانا يقول : لقد تركتهن في بلد ما نسيت اسمه بعد ذلك. ولا شك اني فقدتهن ما في ذلك شك.

الا يفقد الانسان نفسه في بعض المرات. ثم سرعان ما يتحول بك الى حديث غير هذا ليبعدك عن نفسه. ولكنك تحس بالمرحاة والمرحة وانك لتسمع وقع خطاه وهو يغوص في ماضيه فلا تملك الا ان تغوص معه في الاتعاب

فتلتقي من جديد باحزانك الماضية.

مباشرة من مكتب المدير وضع عمي رجله في المجهول
يلقي بنفسه هناك. وما وجد من يسأل حين قال :

« ولكن في اي مكان اموت ؟ فهل يجب على الانسان
البائس ان يبحث عن مكان يموت فيه. لقد بدأت العمر في
مكان لا اعرفه فاين انهيه.

البناية قائمة في شموخ فكان الامر لا يهمها. قال عمي
وهو يلقي نظرة ولهي :

- ما الأم الحجارة تتجاهل واضعها وعذرها انها صماء
فمن اين يتطرق اليها الخير وكل ما تحويه ينتسب الى...

استغفر الله. لن اخوض في اعراض من كنت احبهم
ولكن الناس، ما لهؤلاء الناس. ألم يشعروا ان هناك فراغا.
سوف اعود لهذا الذي يدعونه بالسيد المدير وادخل عليه دون
استئذان وانحني على مكتبه واضعاً احدى يدي على الجهة
التي يصدر منها اوامره والاخرى اتكى عليها واصوب نحوه
نظرات وقحة حتى اذا استنكف تجاهلته فاضطره للكلام.

- مالك يا عمي تتعب نظرك افتشكو الما

- نعم اشكو الاما -اقولها بوقاحة- وانت اول من دلها علي

- لقد كنا نحترمك فكيف نسبب الما لمن نحب ؟

- لقد مكثت سنين معي. فهل اصابك مني مكروه او

بلغك عني ما يسيء

- كلا فانت مثال النزاهة يا عمي ومحل تقديري فهل

بلغك عكس ذلك

ولو قال غير هذا الذي في عقلي لاعلنت الحرب ضده

سوف اقول له عند اول كلمة يتفوه بها

- خذ انت الاجازة فانت تحبها ، اترك لي مكانك

- انك قادر على القيام بالدور كاحسن موظف ولكن ينقصك التدريب، هناك امور يجب ان يعرفها الانسان لكي تحصل به الى حيث يريد.

- لا سيدي المدير. ما تقوم به انت يقدر كل الناس على فعله

انا اشهد انك لا تفعل شيئا غير التوقيع على الورق. فهل اعجز انا عن توقيع الاف الاواق. انا احق منك بهذا المكان فمتى جئت انت ؟ بالامس فقط اتوا بك لقد كنت واهن الخطى وانت تتبعني اول مرة تذكر جيدا تذكر اول رجل خاطبك الم اكنه ؟ تذكر كلمات الترحيب وقد صدرت من اعماقي الم تتأثر بها الى حد انني رايت في عينيك رغبة للبكاء قل تحدث. الخجل لا يفيدك انت تخرج من هنا فتذهب الى بيتك فهل عرفت ان لي مكانا اوى اليه غير هذا البناء. انت عندك اطفال تعود اليهم فهل عرفت ان لي غير القط الذي الفته منذ زمن. انه يغادرني احيانا ثم يعود وفي عينيه ملامح اخرى فهل علمت انني اخرج ؟ وهل رايت في عيني ملامح غير التي تعرف ؟ فقد قررت ان لا اعود اليكم حتى لو اجبرتموني. فما الفائدة لقد اضعت شبابي في العمل فنلت هذا الجزاء فكيف يكون الجزاء وانا في خريف العمر فقط عندي طلب : اعطوني الحجارة التي وضعتها بيدي في هذا البنيان ولن اقبل لها ثمنا انا اعرفها واحدة واحدة ولن يصعب علي قلعها .

جلس عمي حيث يمكنه ان يراقب الجميع كعادته جلس على مقعده المعتاد. لم يعرض كلماته الطيبة على الحرفاء كعادته في هذه المرة كان يستعرض مجده الضائع. يستعرض عمره الذي تأكل. كان يبحث له عن نهاية. فكان فكرة النهاية لم تنته اليه يوما ولاخطرت له على بال. وفكره مشغول فما أتعب ان يبحث الانسان عن نهايته فلا يتبينها ولا يجدها.

وقام في نفسه سؤال : لماذا خلق هو بالذات ؟ لكي يكون في خدمة الآخرين. ولكن أية خدمة هل تكون الحياة عبثا تهدر في توافه الامر. وضحك عمي. ضحك لان فكرة احتوته فمن تشبثت اصابعه بشيء فضرِب عليها فلن يسعه إلا أن يطلقها حتى ولو كان من تحته هوة يقع فيها فيهلك.

وأغلق عمي عينيه فهو يرى ادارة أخرى وأناسا يعرفهم مروا من هنا ولكنهم لا يحيلون قضايا مغتصبة.

وسمع صوتا يهدده : لا تيأس يا عمي. لقد مر من أمامك رجال عملوا معك طوال السنين فهل يسوؤك أن تلتقى بهم.

وأحس بان نواقيس تملأ سمعه وأحس بالوهن. وضحك مرة أخرى. كان ضحكه في هذه المرة ابتسامة بقيت مرسومة على وجهه. ولم يقدر أحد أن ينزعها من فمه حتى بعد أن واريـنا جثمانه



التابعي الاخضر

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- المهر -

لاحظ صديقي انصرافي عنه فجأة وانشغالي بالنظر إلى جماعة من البدو كانوا يجلسون حول المنضدة المواجهة لنا ، قد استغرقوا في الحديث والجدل بأصوات مرتفعة بعض الشيء ، مثلهم مثل معظم رواد المقهى ، سألني :

- ما الأمر ؟

- لقد أثار فضولي هذا الرجل الجالس في الوسط
- تعني الرجل الحليق الرأس صاحب الجبة البيضاء ؟

- نعم

- ماذا عنه ؟

- ألم تلاحظ عليه شيئاً ؟ <http://Archivebeta.S9>

- تقصد تلك التجاعيد والخطوط التي تغطي فروة رأسه ؟
- إنها تذكرني بالرقيم الذي نلاحظه على شاطئ البحر بفعل حركة المد والجزر بعد انحسار الأمواج أو بذلك الذي تخلفه السيول على مسطح رمال الطمي بعد أن يفيض الماء ويتبخر.

- الحقيقة أنني أرى عجباً.

- اعلم أن وراء ذلك قصة مثيرة مؤلة ما زالت شعاب الصحراء تردها حتى اليوم.

- هل لك أن تقصها علي ؟

- الأفضل أن تسمعها من صاحبها ذاته.

- أترأه يفعل ؟

- لا أظنه يمانع. سأدعوه إليك وسنرى ماذا يكون منه أمره.

قال صديقي ذلك ونهض واتجه نحو الجماعة. ولم يلبث أن عاد مرفوقاً بالرجل. عرّف أحدنا بالآخر وأفهمه بأنني رجل مولع بشؤون البادية وأهلها ، وأنني أرغب في سماع حكايته. واجتهد في إقناعه بأن يرويها لي. ثم استأذن في التغيب عنّا فترة من الزمن لقضاء بعض المآرب.

دعوت يوسف - وهذا هو اسم الرجل - إلى الجلوس ، وطلبت له مشروباً. وبعد تبادل كلمات الترحيب رجوته أن يروي لي قصته تنهد في عمق وشرد بنظرة بعيدا وظلّ صامتا ، وقد اكتسب وجهه مسحة من الحزن العميق.

ومضيت استرق النظر إليه ، لا أحسبه قد تجاوز الأربعين من العمر ، أسمر حتى الدهمة ، ضخم الجسم ، مفتول العضل ، في نظرته حدة وذكر.

أخرج من جيب صدره منديلا مضى يجفّف به العرق المتصبّب من وجهه ثم مرّره على فروة رأسه. وتهيأ لي أن أشاهد رأسه عن قرب. وأزداد عجبى وفضولي بعد ذلك تناول لفاقة أشعلها وشرع في تدخينها بعمق وبنسق سريع. وشرد بنظره مرة أخرى.

يبدو أنني أنكأت جرحه القديم ، وأيقظت في أعماقه حزنه الدفين الذي لم تأت عليه الأيام بعد.

التفت إليّ وحدّق فيّ النظر وقال :

- أنّها قصّة قديمة غير مسليّة سأرويها لك ما دمت مصرا على سماعها رغم أنني أكره الخوض فيها :

كان ذلك سنة الجراد. أي من حوالي سبعة عشر عاما تقريبا. في صيف ذلك العام إثر موسم الحصاد أقيم بالواحة فرح لأحد أبناء العشيرة. وكانت تلك هي المرة الأولى منذ عدة سنوات التي تحيي فيها العشيرة عرسا لأحد أبنائها الأمر الذي جعل جميع أهل الواحة يحرصون على حضوره.

وكفيري من الشباب لم أتخلف عنه ومواكبته يوما بيوم
وليلة بليلة، ويوم «الرحاية» رأيتها للمرة الأولى تسألني
عن الرحاية. هو يوم يخصص لرحي القمح الذي يعد منه
طعام العرس. تجتمع فيه الصبايا المؤهلات للزواج بخيمة
الفرح الكبرى التي فرشت أرضها بالحصر والأبسطة وضع
عليها عدد من الرحي تجلس الفتيات حولها مثنى مثنى وهن
في كامل زينتهن ، حولهن تجلس صويحاتهن في انتظار
دورهن ، يشاغلنهن ويداعبنهن ، ويشتركن معهن في
التهامس على أولئك الشبان الذين يقفون عند أستار الخيمة
قد انشغل كل واحد منهم بواحدة منهن. ومضى يتحرى في
السؤال عنها ويحاول عقد صلة معها والتحدث إليها مباشرة
أو عن طريق وسيطة وحتى بالرمز والإشارة إذا تعذر عليه
ذلك. فكانوا لا يسمعون منهن غير الضحكات وبعض الكلمات
العابرة المبهمة في أغلب الأحيان من الوقت الذي تكون فيه
إحدى العجائز مرابطة بالخيمة تتنقل هنا وهناك تتابع
عملية الرحي وتعاين الطحين مبدية ملاحظات عليها في
نفس الوقت دون حدوث ما لا يحيزه العرف وتقره العادة مما
قد يصدر عن أولاء أو هؤلاء من تصرفات طائشة ويوم
«الرحاية» يبدأ عند الضحى وينتهي قبل الغروب بقليل.
وهو الفرصة الوحيدة التي يسمح فيها للفتيات والفتيان
باللقاء في مكان واحد للتعارف وجس النبض والإتفاق إن
أمكن تمهيدا لعملية الخطبة بعد ذلك.

ويمكن للفتيان الاستعانة بأخواتهن أو قريباتهن في
التوسط بينهم وبين من يقع عليها الاختيار من الصبايا
لمعرفة مشاعرهما نحوه وتحديد موقفها منه. لقد تعلق قلبي
بصالحة من الوهلة الأولى. ولمست منها تجاوبا نحوي وميلا
إلي ، وأشعرتها عن طريق إحدى قريباتي برغباتي في
الاقتران بها.

ولحتها تنظر إلي وتبتسم في الوقت الذي كانت تتلقى
فيه رسالتي إليها. وكدت أطيّر فرحا وابتهاجا.

لقد شغفت بها وملأت صورتها فكري وخيالي - ولم
انتظر طويلا ووجدتني أسارع بمفاتحة أمي في أمر زواجي
منها.

ويبدو أن طلبي فاجأها إذ سألتني في شيء من
الدهشة :

- صالحة بنت ضو لزرق
- نعم هي أعني. هل لديك اعتراض عليها ؟
- أبدا إنها زينة بنات القبيلة. لقد سمعت الكثير عن أدبها
ورجاحة عقلها. آخر مرة شاهدتها فيها كانت من ثلاث
سنوات على ما أذكر فهم يقيمون بعيدا عنا كما تعلم.
- ولكن يا ولدي...
- ولكن ماذا يا أمّاه ؟
- والدها معدود من الأثرياء .. ونحن أضنك لا تجهل الحال
التي صرنا إليها.
- تعنين أننا أصبحنا فقراء. الفقير ليس عيبا ولا سبة.
- أعلم ذلك يا بني. وأعلم أننا كنا حتى زمن غير بعيد من
الموسرين، رحم الله والدك لقد أتى بكرمه الزائد على كل
ما كان معنا. الأرض والابل والغنم ، حتى فرسه المدللة
التي لا يقل حبه لها عن حبه لك باعها وجاد بثمنها على
أحدى الأرامل لتستعين به على تجهيز ابنتها للزواج.
- يكفيه ويكفيها فخرا ما نسمعه من القوم من ثناء جميل
عليه كلما ورد ذكر اسمه في أحاديثهم وأسمارهم.
- كان إذا مر يوم دون أن يطرق بابنا طارق يقضي يومه
منقبضا مهموما.
- أعدك يا أمّاه بأن أعمل كل ما في وسعي حتى نكون كما
تحبين إن شاء الله.

ويسود الصمت بيننا لحظات ثم تعود الوالدة الى
القول :

- إذن فأنت ترغب في خطبة البنية ؟

- نعم يا أمّاه.
- رغم الفارق بيننا وبينهم.
- انهم ليسوا أفضل منّا. والمال ليس هو كل شيء. وقد علمت أن ضو لزرق إنسان كبير القلب ، سمح الخلق ، لم تبطره النعمة ، ولم يفسده المال.

- هذا صحيح.
- لا أعتقد أنه سيبخسني قدري وهو يعلم ابن من أنا.
- أرجو ذلك يا ولدي ... والله يقدر ما فيه الخير.

وتستيقظ الذكريات الهاجعة. في أعماقها فتصدر عنها أهة خائفة حاولت حبسها فلم تقدر. وتتابع تقول :
- ما دمت متمسكا برغبتك فتوكل على الله. من جهتي سوف أذهب الليلة وبعض النسوة لمخاطبة أم الفتاة في الأمر فأمل خيرا.

ولما أقبل الليل ، انطلقت وصويحابتها باتجاه ديار الحبيبة بقيت انتظر عودتهن في لهفة وقلق.
ومرت الساعات على طويلة قاسية حتى خلت أن الزمن توقف. وأخيرا تنأى إلي صوت الوالدة وهي تودّع رفيقاتها عند باب الدار.

كانت مبتسمة منطلقة الأسارير. قالت بعد أن التقطت أنفاسها واستراح بها المقام :

- ابشر يا بني .. لقد ضمنا موافقة الأم. وتبقى الكلمة الأخيرة للأب فهو وحده الذي بيده الحل والعقد في نهاية الأمر. سأطلب من الحاج عمر أن يكلمه فهو أفضل وأكفا من يقوم بهذه المهمة. هو حكم القبيلة ورأسها المدبر وكبير شيوخها رأيه محترم وكلمته مسموعة. وإضافة الى أنه كان صديقا حميما لأبيك وموضع سره ونجواه.

في الغد رافقتها إليه فقبل مسرورا القيام بذلك المسعى.

و ذات يوم جاء ليخبرنا بأن الرجل لا يمانع في تزويجي
من ابنته بشرط أن أقدم لها مهرا عشرين ناقة بيضاء من
كرائم الإبل..

علما بأن هذا النوع من الإبل غير موجود برربوعنا ولا
بكل الواحات المجاورة.

كنت في غاية النشوة والسعادة وأنا أستمع إلى الحاج
عمر وهو يخبرنا بذلك.

لم أشغل نفسي بمسألة المهر الذي لم تتقبله الوالدة
بارتياح واعتبرته تعجيزا ورفضاً مقنعاً.

ومرت ثلاثة أيام كانت كافية للتخفيف من هذه الفرحة
التي غمرتني. لقد حان الوقت لإعمال الرأي. إن المسألة على
غاية من الخطورة والأهمية. عرضت على الوالدة بيع الشياه
القليلة التي بحوزتنا ، وكذلك الناقة كما قدمت لي قرطها
الذهبي الذي ليس لها سواء لأرهنه قائلة :

- بالمبلغ الذي سيعطى لك فيه بع ثمن الشياه والناقة سوف
يكون معك المال الكافي على ما اعتقد لأحضار المهر
المطلوب.

حاولت الاعتراض وعدم الاستجابة لما تدعوني إليه ،
لكنها تمسكت برأيها وأصرت عليه. واقنعتني - في نهاية
الأمر - بألا فائدة من العناد والمكابرة.. فكيف يتيسر لي
الحصول على المال اللازم بغير ذلك ؟

وعزّ عليّ أن اضطرّ لبيع كل ما نملك في هذه الحياة.
وأن انتزع قرطها من أذنيها. ولكنني أحب صالحة ولا أريد أن
أخسرها وأنا أراها زوجة لأحد غيري من فتيان القبيلة.

ومرت الأيام سراعاً ، وحزمت أمري وأعددت نفسي
للسفر. وفي فجر أحد الأيام ودعت الوالدة ومضيت أضرب
في الأرض.

كان الربيع قد شارف على نهايته ، وقد أخذ الطقس
يميل إلى الحرارة. الصحراء تمتد أمامي بلا نهاية كأنها بحر
أصفر متجمد.

في الأيام الثلاثة الأولى من بدء رحلتي صادفت في
طريقي بعض رعاة الإبل. كانوا يسرون لرؤيتي ويجتهدون
في إكرامي ، إنهم يعيشون في شبه عزلة كاملة عن الناس
والدنيا ، وقد تمضى على أحدهم شهر لا يرى فيها مخلوقا
غير إبله التي يرعاها أو بعض الحيوانات الوحشية التي
تجوب الصحراء بحثا عن الماء والكلأ.

كنت أسير معظم النهار رغم ما في ذلك من المشقة ،
نظرا لحرارة الجو. وحين تشتد الهاجرة وأشعر بالتعب أقيم
ظليّلة وأقيل لا شك أنك لا تعرف الظليّلة. إنها عبارة عن
خيمة صغيرة جداً من شق واحد. أفرش جزءا من وزري وأشدّ
الجزء الآخر إلى عصاي ثم أثبت العصا إلى الأرض في وضع
مانل باتجاه الشرق ، وأمسك طرف الوزة برجلي وأتمدّد
متوسدا النعل والمخلاة.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ويهب النسيم رخاء فاستغرق في النوم.

أمّا في المساء فكنت أوي إلى أعلى أحد التلال توقياً
من خطر الحيات والثعابين.

وكلما توغلت في الصحراء انقطعت صلتني بالبشر فلم
أعد أرى أحدا من رعاة الإبل الذين كنت أصادفهم في طريقي
في بداية رحلتي ، وأحيانا كنت ألمح ذئبا أو ثعلبا أو قطيع
غزال أو أرنباً قد أوى إلى ظل شجرة محتجبا به من لفح
الهاجة فأوقضه فيعدو محاولا الهرب لكنه سرعان ما
يتوقف بسبب الرمال الملتهبة فأمسك به دون عناء.

وتمتدّ الصحراء أمامي بلا حدود. ومع كل يوم يمر كان
إحساسي بالوحدة والوحشة يتعاظم ويشتد.

وبدا يعتريني الوهن. وتناقص ما كان معي من الماء
والزاد رغم حرصي الشديد. وأخيرا نضب عني الماء ولم تعد
القربة تحوي غير بضع جرعات لا غير. ولأول مرة ينتابني
خوف حقيقي. هل كتب علي أن أهلك في هذه البدياء
الموحشة وحيدا ؟

ظللت محتفظا بتلك الجرعات القليلة من الماء يوما
وبعض يوم. وأتيت عليها آخر الأمر.

الحر شديد ، والصحراء تبدو كأنها بلا نهاية. وأحسست
بجفاف فظيع بحلقي وشفتي. لقد قضى الأمر ... وتذكرت
نصيحة قالها لي أبي ذات يوم : (إذا أصابك العطش وأنت في
الغلاء ولم تجد ماء فضع حصاة صغيرة تحت لسانك فإنها
تدير اللعاب وتذهب عنك العطش).

من أين لي بتلك الحصاة في هذه الأرض القفر التي
تغطيها الرمال ؟

تحاملت على نفسي وشدت من عزمي ومضيت أتابع
السير مبتعثا الخطى، وفتي نفسي ما زال يفتلج بعض الأمل
في العثور على الماء في الوقت المناسب.

أضغاث أملاح. هل يمكن أن ينبجس الماء من تحت هذه
الرمال الشاحبة ؟ ، إنني لا أرى غير السراب يتراقق في
الأفق يغالط النظر ويوحي بالأمل الخادع.

شعرت بعطش شديد. وبدأت قواي تخور وتتلشى. ماذا
علي أن أفعل ؟ يجب أن أفكر بسرعة. إنني لا أعرف إن كانت
الطريق ما تزال طويلة أم لا. قيل لي : إن رحلتي لن
تستغرق أكثر من أسبوع وها هي قد شارفت على الأسبوع
الآن وليس هناك ما يدل على أنني قد صرت قريبا من هدفي.
هل أخطأت السير في الاتجاه الصحيح ؟ قد أكون تهت عن
الطريق فعلا. ولو كان الأمر كذلك فهو الموت المحقق.

يجب ألا أبذل مزيدا من الجهد حتى لا يتضاعف عطشي ويذهب ما بقي من قوتي ... علي أن أتوقف عن السير ، غير ممكن فمن يدري قد أصادف ماء أو بشرا.

إنتابني صداد حاد ، وشعرت بهبوط مفاجئ وبالم شديد يعتصر صدري وأمعاني. وبدأت أنفاسي تضيق ، وخيل إلي أن نظري بدأ يضعف ويكل.

يجب أن أفعل شيئا ، وبسرعة ما دمت محتفظا ببعض قوتي ، هذه الشجرة ... إنها كثيفة الأغصان يانعة الخضرة. ومضيت نحوها أحث الخطى وقد شعرت بحيويتي تعود إلي من جديد ، لما بلغت ألقىت بثيابي جانبا وشرعت في الحفر أسفل جذعها من ناحية الشرق غائضا إلى أسفل ، وكلما أنهكني التعب استرحت قليلا ثم عاودت الحفر من جديد. كانت الأرض رخوة ناعمة ندية الأمر الذي يساعدني على متابعة الحفر دون عناء كبير.

وإن هي إلا ساعة وبعض الساعة حتى فرغت من الحفر. كنت في حالة يرثي لها يكاد يغمي علي من شدة التعب والعطش. وتأملت في الحفرة قليلا ، إنها تتسع لي وزيادة. ذلك هو المطلوب. نزع ثيابي ووضعتها وبقيّة المتاع بين أغصان الشجرة ثم تسللت إلى الحفرة لما صرت داخلها مضيت أهيل الثرى على جسدي إلى أن غمر تماما ولم أترك من فتحة الحفرة غير كوة صغيرة أتنفّس من خلالها.

كان التعب قد نال مني، وكنت أشعر بثقل التراب على جسمي خاصة أنني صرت مقيد الحركة زادت دقات قلبي، وضاق تنفسي ، وامتلا سمعي بطنين مزعج لا أعرف مأناه ما عدت أسمع غيره.

مرت لحظات. وقليلا قليلا هدأ تنفسي ، وانتظمت دقات قلبي. وشملني شيء من الانتعاش بعد أن تسربت البرودة والرطوبة إلى جسدي العاري الملهتهب.

شعرت بخدر لذيذ وسرعان ما رحت في غيبوبة. لا أعلم كم بقيت على تلك الحال. وفي لحظة ما خيل إلى أن نسمات رقيقة تداعب وجهي وإني ماعدت مقيد الحركة ، وأن أصواتا تتردد حولي ، إنه حلم لذيذ. لكن الأصوات كانت تزداد وضوحا ، هل أنا في يقظة حقا ؟.. تحركت ، فتحت عيني .. من هؤلاء ؟ أين أنا ؟ نظرت حولي ، إني أنام على فراش بسط على الأرض وسط غرفة رحبة نظيفة حولي جلس بعض الرجال يتبادلون الحديث دون جلبة أو ضوضاء.

شعروا بحركتي فكفوا عن الكلام. نهض أصفرهم تقدم مني متهلل الاسارير وهو يقول في ارتياح وفرح حقيقي :

- الحمد لله... لقد استعاد وعيه أخيرا .. لقد نجا. لقد نجا ..

وحاولت أن أتكلم فلم أقدر. أتوني بشيء من الحليب مخلوط بعسل النحل سقوني منه قليلا بعد عناء ومحاولات متكررة.

لقد جف حلقى وأصاب التصلب لساني والتورم والتشقق شففتي فلم أعد أقدر على ابتلاع أي شيء ، شعرت بألم شديد وأنا أحاول تناول جرعات من ذلك الحليب لكن احتملت الألم لما كنت عليه من عطش فظيع ليس بالإمكان وصفه أو التعبير عنه.

حدثني ذلك الفتى كيف أنه خرج منذ ثلاثة أيام للصيد وبينما كان في طريق العودة شاهد آثار أقدام عرف منها أن صاحبها في حالة غير عادية فاتبع الأثر حتى وصل إلي وتأكدت شكوكه... لقد حسبني ميتا في البداية لكنه بعد أن أزاح عني التراب وأخرجني من الحفرة وجدني في حالة بين الحياة والموت. وعرف من متاعي ألا شيء بي غير العطش. وقد اضطر لفتح فمي بالقوة ليسقيني بعض الماء.

كما علمت من القوم أنهم من القبيلة التي أقصدها.

وقدموا لي بعض الحليب من جديد. واستطعت هذه المرة أن
أتناول منه قليلا.

وسألني أحدهم إن كنت أشعر بألم في رأسي.
قلت وبني خشية من الكلام :

- بلى ... وبثقل شديد.

ابتسم وقال :

- لقد حلّقنا لك رأسك ووضعنا عليه ضميدة من دقيق
الشعير الفاوي (1) بعد أن عجنّاه بالخل ليذهب عنك
ضربة الشمس. ودهنّا جسمك بالزيت ، كان رأسك يشتعل
وجسمك متخشّبا قد جفّ من الماء أو يكاد ومن حسن حظك
أن لحقت بك في الوقت المناسب.

وتيسر لي أن أتكلّم أخيرا لكن بشيء من الجهد.
قصصت عليهم حكايتي ، فتأثروا لحالي وغمروني بعطفهم
وعنايتهم ووعدوني خيرا.

لما رفعت يدي/أتخسّس رأسي وجدت عجين الدقيق الذي
وضع عليه على هيئة طاقية قد يبس وتصلّب حتى صار
كالفخّار. ونهض أحدهم وسازع بانتزاعه فأخسست إثر ذلك
براحة لا توصف ، وزال عنيّ ذلك الثقل والألم الذي كنت
أشعر به. وأحضروا ماء غسلوا به رأسي فزاد إحساسي
بالراحة.

ومضت حالتي في التحسّن بالتدريج ، وفي موفى
اليوم السادس من وجودي بين أولئك القوم خرجت ومضيفي
وبعض الرجال نتمشّى بأطراف الواحة لتعويد جسمي على
الحركة بعد ما عرفه من طول استرخاء وركود.

كنت كالطفل الصغير الذي ما يزال في بداية عهده
بالسير لم نبتعد عن الديار كثيرا. وفي تلك الجولة القصيرة
شاهدت جانبا من الواحة الجميلة الغافية في أحضان
الصحراء. وعرجنا على ساحة الميعاد ، التي اتخذ منها القوم

(1) الذي مرّ عليه أكثر من حول.

مثابة لهم ومنتدى يلتقون فيه بالنهار وبالليل لتزجية الوقت ولتدارس أحوالهم ومعالجة مشاكلهم الخاصة والعامة. لما بلغنا المكان نهض من كان حاضرا للسلام على والترحيب بي، كانت اخباري قد بلغت أسماعهم وشاعت بعموم الواحة تقريبا.

في اليوم الأخير من إقامتي بالواحة استضافني شيخ القبيلة، وبعد الانتهاء من الطعام أخبرني أنه وبعض رجال القبيلة قد جمعوا لي النوق التي طلبتها وأنه أضاف اليها فحلا من جنسها من أجود فحوله.

ولما حاولت مناقشته في موضوع الثمن قال :

- لا تشغل بالك بهذا الأمر...

- ماذا تقصد يا شيخ ؟

- لقد قررت والجماعة تقديم النوق هدية منا اليك.

وأخذتني المفاجأة ولم أجد ما أقوله وظللت أحملق في الشيخ كالأبلك.

ولاحظ وجومي فسألني <http://Archive.org>

- كأنك تشك في قلبي... صدقني أنني لا أمزح.

- ولكن هذا كثير علي ... الحقيقة لقد أخجلتموني بكرمكم وحسن عنايتكم...

- لقد قمنا بما يحتمه الواجب لا غير. والحقيقة اننا سعداء بنجاتك من الموت على أيدي أحد رجالنا. ويهمنا أن تعود إلى أهلك سالما هذه المرة دون أن تتعرض لأي مكروه...

ودعته والجماعة شاكرا ممتنا. وبدأت رحلة العودة.

وأمر أن يصحبني بعض الرجال وألا يتركوني إلا بعد أن يطمننوا علي. ولما صرنا على مشارف مزابنا ودعوني وعادوا أدبارهم رغم الحاحي الشديد عليهم في الإقامة عندها يوما أو يومين للراحة معتذرين بأن الشيخ لم يأذن لهم بذلك.

بلغت الديار قبل الغروب. استقبلتني أمي بالأحضان
والدموع وهرع الأقارب والأجوار للسلام علي.

ولما استراح بي المقام رويت لهم قصتي وما جرى لي
في رحلتي. ولفت نظري تخلف صهري عن الحضور ، كما
لاحظت تعمد والدتي وكل من جاءوا لرؤيتي تحاشي التطرق
إلى موضوع زواجي ولو حتى بإشارة عابرة. وقرأت في
عيونهم شراً خطيراً يحرصون جميعاً في اخفائه عني.

لما انفردت بوالدتي سألتها في ذلك فلاذت بالصمت ،
ألححت عليها واستحلفتها بأن تخبرني بالحقيقة مهما كانت ،
وتجهش بالبكاء وتجييني من خلال دمعها الواكف الهطول :

- ماذا أقول لك يا ولدي .. بعد رحيلك بأسبوع خرجت صالحة
وبعض صويحاتها بحتطين يرفهن على أنفسهن بعيداً عن
أعين الكبار وأسماعهم - كما هي عادة البنات - فلسعها
سام أرقط ، ورغم كل المحاولات التي بذلت لإنقاذها فلم
تغرب عليها شمس ذلك اليوم ألا وهي تحت التراب.

يتوقف مخاطبي عن الكلام ، يسود الصمت لحظات ، ثم
يعود إلى القول ، في نظراته شرود ، وفي صوته حزن دفين
عظيم..

- تلك هي حكايتي وحكاية تلك الخطوط والأخاديد التي
شاهدتها برأسي ، والتي سوف تظل تروي قصة حبي
وعطشي في الصحراء. إنها المهر الحقيقي الذي كنت
سأقدمه فخوراً إلى صالحة ولكن ...

وينهض فجأة ، يضافحني مودعاً ثم يغادر المقهى
مسرعاً كأنه يهرب من شيء دفين يطارد. وأظل مكاني أتبعه
نظرياً وهو يشق طريقه بين جموع المارة بالشارع الطويل.

محمد الخفوسي الحناشي

- امرأتان ... ووجه واحد -

يعتريني إحساس مرير بالعجز وقلة الحيلة ، وبأنني منكرة يسحقني الاحباط. مرارة رهيبة في حلقي تشوه حلاوة هذا اليوم الربيعي ، وصقيع في أوصالي يشوه دفء هذه الشمس الحنون التي تتسرب بصمت لتدغدغني. لماذا تراودني هذه الطبيعة الجميلة عن نفسها ؟؟؟ إنها أبدا لن تتمكّن من إغرائني ؛ فقد انكفأت الروح وها هو القلب يلحق جرحه منفردا إلاّ من حنايا مضمخة بالذبول والانكسار !!!

...أندفع بشره نحو خزانة الأدوية لاتخلص من أفكاري. ثم أراجع برعب شديد هروبا من الجيوب المنومة فيلقفني كرسي يواجه المرأة : أشخص نحوها أعجب لهذا الوجه الأسمر الشاحب كم يحاصره الألم ؟!!!. إنه صورة بلاقناع ، كل ما عنده بكر لازيف فيه. أشياء ثابتة في حياتي : حياة ... عفة ... مبادئ ... سلوك حسن ... سبيل من القيم يوصلني بهذا المجتمع المحافظ ، مع أنه من اقدر ما يكون لم استعمل أنوثتي قط. ولم استغلها للفوز بأي نفع أو قضاء أرب « رغم يسر العملية » (تكفي ابتسامة ناعسة وحركة غجرية ترفعين بها بعض الشعرات السوداء الكسالي التي تغفو على جبينك، مع بعض التسامح والتساهل لقاء لمسة ما ، ومع ضحكة مجنونة لا تعرفين من أين خرجت ، حتى يقع الضحية وتجني القبول الحسن).

بهذا كانت توصيني دائما : « سرّ المهنة يا عزيزتي ، وأنا أسرّه لك ولا أبغي جزاء ولا شكورا. المهم أن تعيشي

حياتك ككل الناس ، لا تتنكري أبدا لأنوثتك ، انها سلاح حاد
في هذا الزمن الرديء .»

... عندما قابلته لاح على كليتنا الاستياء ، قلت في
نفسي : « هذا البطن الضخم البطن بالشحم والزيوت
والغني بالدهنيات لو يوزع على كلاب حينا لكفاهم
أسبوعا». ولعله قال في نفسه : « سيكون نهاري سيئا بعد
اصطباحي على هذا الوجه الميت »... عنفتني كثيرا : « ما
ضرك لو وضعت بعض الطلاء ونزعت عنك هذا السواد ؟ ،
إذن لما طارت الوظيفة !!! إني أعجب لمكابرتك ، ثم بسخرية ،
لعلك تشتهين أن تموتي جوعا ؟؟؟ إذن كابري وموتي ..
انظري حتى تدخل ذلك المسؤول الكبير لم يشفع لك في
ايجاد عمل شريف .»

... هي كانت هكذا ، رافضة كل النواميس الاخلاقية ،
جذوة من التمرد. ضجة مصطنعة من الارتباك تسيطر عليها
وهي تمشي ... تلتفت ... تتكلم بعلو ... تتفقه حتى يلوح
لهاثها ... تصطدم ... تتعمد إرخاء « السفساري الحرير » ...
تتمالك نفسها إذ تكاد تقع ... وشعرها يوهج كالنار ، وناب
من الذهب يشع من فيها ، وبين الغينة والغينة تهمس لي :
« هل أبدو فاتنة ؟؟؟ ويلاه أحسن أن زينتي تلفت .» ولا
تتورع عن إخراج المرأة والنظر بارتياح عميق.

... أتبعها باستسلام غريب. لا يهم ما سيقوله الناس
عني : « رفيقة لمومس»، ابنة الشرف التليد تصاحب ابنة
الليل والرجال ! لماذا لم يقولوا شيئا لما لفظها كالنواة
وتركها مطلقة في العشرين من عمرها مع ثلاث بنات في
عمر الزهور تواجه المجتمع القاسي الذي عذبها !! فقط لأنها
مطلقة ؟ إنه يحتويها الآن ويخافها لأنها واجهته بأنوثتها.

... تستقطب اهتمام المارة ، كلمات معسولة تتناثر
حولها ، السيارات الفاخرة ، وحتى العتيقة ، تعافني وتقف

من جهتها ويطلّ الرأس المغمور الذي يأمل إشباع نهمه الجنسي مع هذا اللحم الطري : « بقداش لحم العلوش ؟ »
تهمس لي : « إنه يتعلق ، وسترين كيف سأسخر منه » -
وتبتسم له ابتسامة أطول من نهر النيل حتى يطمئن لرضاها ، وإذا بها تسبّه وتسبّ جذور أمه وكل جهازها التناسلي قطعة قطعة بأعلى صوتها ، فيفرّ خوفاً على نفسه من عملية خصي محقّق لو يقع بين يديها ، وهو يودّعها ويتهمك عليها بأشارات لا أخلاقية غاية في الابتذال.

عالمها صاخب تملؤه الاثارة ويغذّيه الحقد والانتقام من الرجال ، كل الرجال. وعالمي قفر يزيد كابة رجل انتقم مني حيث مات وتركني عروسا في أسبوعها الأول ، وترك لي طفلا لم أتبين أمره بعد وربوا ينهي جهازي التنفسي ويخنقه فيستحيل وجهي وأطرافي الى زرقاة قاتمة ... انتهي كل شيء واستوت عندي الأشياء ... لم يعد أمامي ما أود تحقيقه أو أخاف وقوعه ... لا شيء بات يفرحني أو يشقيني ... لذلك استسلمت لها ... قالت لي : « اخرجني من حصار الوحدة والمرض موتي في الشارع أحسن من أن تموتي في هذه الغرفة الموحشة ، صدقيني لو مت أنت لما ذرف عليك دمعة ، ولارتعى بين احضان أول أنثى تصادفه.

وتجذبني ... فاطيع وتعربد بنا السيارة تطوي المدى فرحا بتخلّصها من صخب المدينة وعيون الناس وهو يحتضن المقود منتشيا بالغنيمة : « انظري كم المرأة مظلومة؟! ما من رجل إلا ويطمع في زوجة غيره ، وسترين صدق كلامي ». تستوي في جلستها وتحكي ... فيحكي ... وتضحك في انتصار : « متزوج وله طفلان وزوجة حسناء ، ولكن هكذا الرجال مصابون بلعنة الجسد ، أنسيت أباك ؟

أه أبي :

أبي هو الذي رشحني لكل هذا الحزن ، للحرمان المادي

والعاطفي. أرقني بصبيانياته حتى كرهته ، يا للذكريات
التي تنضح مرارة وعذابا :

... » أقطع الشارع الطويل الذي يغلفه الوحل والمياه
الراكدة برجل نصف عارية جسم تلفه قطعة باهتة من
القماش الوضيع الرخيص. أشتهي كلمة غزل مباحة من أحد
الشبان تحسني بأني امرأة ... أنثى ... ولكن من يهتم بهذه
المراهقة النصف عارية في شتاء قرير ؟ العربي ما أقساه إذ
يخفي الجمال !!! ثلاثون يوما حتى أقبض المنحة المدرسية
الهزيلة ويقبض هو مني لتستقر آخر نفس اليوم بين نهدي
زكية (خليلته الرسمية). وكنت أبكي قهرا ، ولكني أكضم
اعتراضي وحزني مخافة لسان أبي القاطع : « هل أنا من
تمنعين عنه مالك يا يا ... يا....

لقد هدرت مالي في تعليمك. وكان الأولى أن أرميك في
منزل أحد الميسورين لتخدمهم وتدرّبي علي راتبا كاملا. إنني
أستحق الكي لتعليمي الإناث ! الأنثى خسارة فيها التعليم. »
- أفسد أبي الأبوة المقدسة وجعلني أكره الدراسة فتركته
غير أسفة وضاع مستقبلتي كله ، فالحرمان يأتي على الطموح
ويقتل المواهب ، حتى المواهب !! . « وجدتتها . » / تصرخ
كطفلة اقتنت لعبة / « ضقت ذرعا بحرب الاعصاب شهريا ،
وبهذه الجرائم التي اقترفها في حق الأجنة الأبرياء لذلك
سأجري عملية ربط القنوات نهائيا وأستريح من حكم
العجائز: (توضي بالماء المالح فالارض المالحة لا تنبت زرا ...
امزجي الزنجار (1) بالعسل... استعملي مسفوف الكمون (2)
على الريق ... وصفات مزيفة صدقيني لقد جربتتها كلها فلم
تنفع.

أسخر منها بشفقة ظاهرة ... إنها أسيرة أنوثة طاغية
تستمد نفوذها من حقدتها الرهيب ، وبجمالها وخبرتها في
المغامرات تعبت بقلوب وجيوب الرجال انتقاما منهم ، لكنّها
لا تنتقم إلا من نفسها فاللعبة خطيرة جدا عليها.

« كيف حالها » - أسأل الطبيب (صديقها).

- انها تنزف. كثرة الاجهاضات المسترسلة عَقْنَتْ ارحامها.

- وأنا ؟

- جنينك كان ميتاً ، لذلك كان لا بدّ من اسقاطه أمّا الالتهاب

الرئوي فلا يحتاج إلا لبعض المضادات الحيوية ... اطمئني

واصبري ... فذاك الطفل .»

- لنا الله جميعا.

أخرج من العيادة بقلب محطم وأنا أجرّ ساقَيّ كأنني أجرّ

خلفي شيوخوخة هرمة... المطر يغسل الشوارع ، يغسل فرحي

بطفلي المفقود، يبكيني ويبكي مصابي ، وطعم الرماد يخترق

فمي، وصورتها متمكنة من الذاكرة تدفعني لعالمها، وتغريني

بالمتعة المتسخة أرفضها حتى النخاع وفاء لقيم في دمي

ولرجل وحيد أحببته والقدر سلّبتني طفله. الذكرى الحلوة

التي تقر بها عيني وتعوّضني عنه ، والتي قد تنبت زهورا

فوق قبره وتجعله ينام قريبا في مثواه. أستند الى الباب

بتعبتي وضيبي : الجسم متهدّل يحتويه السرير بلهفة. أضْمُها

بعيني طويلا ، وأهمي لاعنة الجنس والمرض... ويأتيني

صوتها المبحوح وهنا مثقال الحمى مسلما علي ، وتترجم

نظراتها الذابلة لغة الغناء والموت ، وتحشرج نافثة تعب

أيام: « لقد تخلّصت من الجنين بعد جهد جهيد ولكنني أنزف

منذ أمس. لماذا لم تأت معي ؟؟؟ ».

انظر إليها بألم ، هل أقول خوفا من الفضيحة ومن

الناس ومن جارتنا الخادمة بقسم الولادة ماذا ستروّج عني اذ

تلمحني ليلا بالقسم ؟ هل اقول لها : إنني جنّت أتفرس

الوجه الملطخ بالموت ... والفراش المغسول بالدم وأعجب

كيف استسلمت جذوة النار هذه الى مصيرها ، هل كان

الجنس إلّا مسكنا ؟ إلا انتشاء رخيصا لم يدم ؟ إلا سببا

لنزيف يقوى كل ساعة ويقذف بصحتها وبقوتها وسيقضي

عليها ؟

أنظر إليها بحسرة... اللوعة تلسعني وأنا أواجه هذا
الوجه النائي العظام. ما الفرق بيننا ؟؟ إنها تموت لأنها
انتقمت ، ولأن « طفل الشهوة » قتلها. وأنا سأموت حزنا
على « طفل الذكرى » الذي تمنيته ، وعلى رجل حطمني
برحيله !!! كلانا مهزوم ... رغم أننا ضدان ...

ولا أدري كيف أتخلص من دموعي وأسعى جريا
لأحضنها يسبقني نحيب متقطع مكتوم... تنغرس أظافرها
في لحمي بوحشية الموت الذي يعصرها وتحقق بي كأنها
ترجوني إنقاذها... أذهل ، وتذهل... وتغيب ابتسامتها
وينقشع الضباب والوهم والخداع والزيغ... ويظهر جليا
صفاء ، صفاء عميق يتفجر من عينيها أشبه بالنور ... لا
يفهمه أحد - يكاد يجرح مآقي ويفتت قلبي... فانكفى ... أكاد
أغوص في نفسي... أتمزق في لحظة تنتهي الأحزان، والمعاناة،
وتستوي الأشياء، وتغيب الصور والوجوه ، ويغيب وجهها
رويدا رويدا ، وتزلزل الأرض فاتهاوى ألما فأننا لم أر
شيئا... سوى...

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

وجهي ...

جميلة بن سعد

-
- (1) الزنجار : مادة زرقاء اللون ، تتلفت في الماء - حسب الاعتقاد الشعبي فهي
لها مفعول على اسقاط الجنين خاصة لما توكّل بالعسل.
(2) مسفوف الكمون : هو دقيق الكمون - وهو حار - لذلك يقع شربه قبل الأكل
مما ينتج عنه آلام في المعدة وفي الأرحام.

- مدينة التماثيل -

ارتعى همّام على الأريكة بعد أن فتح جهاز التلفاز ، وبدأ يتابع باهتمام شريطا لرعاة البقر ، هاله ما فيه من دموية وعنف وحب للانتقام... أحس باختناق فحلّ ربطة عنقه ، وأدار زرّ المروحة الكهربائية القريبة منه لتهوئة الغرفة ، غير أن كلّ ذلك لم يذهب ما به من ضيق ، فقام وفتح النافذة ، وأخذ يخطو داخل الغرفة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، كان منكّس الرأس ، ثقیل الخطى ، أحسّ بالإعياء أكثر فتهالك من جديد على الأريكة ، وشرع من جديد يتابع الشريط على الشاشة في غير تركيز... تذكر ما دار بينه وبين أحد أصدقائه من حديث عمّا يهدّد الإنسانية من مجاعات قادمة ، وكيف أنّ العلم صار لا يخدم الإنسان ، وإنّما صار يخدم السياسة وتذكر قول صاحبه بأنّ العالم يقف على شفا هاوية ذرية ، وأنّ إسرائيل هي «القيتو» على التقدّم العربي ، وأنّ سلوك الصهاينة فيها يزيد في توسيع الهوة بين الشرق والغرب ثمّ وازن في ذهنه بين ما عليه الأمم من تقدّم في العلوم والصناعة وما عليه قومه من تخلف فيهما ، فرأى أنّ المسافة لا تقاس...

شعر بالحسرة في أعماقه ، وبدأ له أنّ الواقع مقلوب ، وأنّ الدنيا غير عادلة ، وأنّ القوم يهدّمون أنفسهم بخلافاتهم وتباغضهم وتحاسدهم واحتضانهم للغرباء دون بعضهم بعضا...

أحسّ بالنعاس يدبّ في بدنه ، فاستسلم لإغفاءة كانت تنغصها شوارد الفكر...

اعترضه صديقه أحمد في شارع من شوارع المدينة ،
 سأل صاحبه بانفعال:
 همام : لم لا يتحرك الناس في هذه المدينة ؟
 أحمد : لست أدري ...
 همام : وأنت أيضا لا تدري؟ ...
 أحمد : إنني حائر ...
 همام : لم ترتعش شفتاك ؟
 أحمد : أهم بأن أقول شيئا فلا أستطيع ...
 همام : كيف جاز لنا أن ندخل مدينة ناسها ميتون ؟
 أحمد : إنهم ليسوا بميتين ...
 همام : ألا تراهم لا يتحركون ؟ ...
 أحمد : رأيت ..
 همام : كل واقف في مكانه .. الباعة في الأسواق .. والمارة
 في الشوارع .. و ...
 أحمد : يا له من صمت مخيف ..
 همام : دعني أتكلم ...
 أحمد : إن لجمود المدينة سرا لا بد من اكتشافه ...
 همام : مجنون ...
 أحمد : أنت تتهم نفسك أيضا ...
 همام : كيف تسمح لنفسك بالبحث عن السر الذي جعل من
 الناس تماثيل لا تتحرك .
 أحمد : إننا بين الحقيقة والوهم ...
 همام : أعرف أنك دائما واهم ...
 أحمد : أتهزأ من قلبي ؟
 همام : أعلق لا غير ...
 أحمد : ما أفرغ ما تقول ...
 همام : أنا لا أقبل أن يصبح الإنسان تماثالا ...
 أحمد : ان فضولك هذا سيجعل منك تماثالا أنت أيضا ...
 همام : اسمع ...

أحمد : ماذا ؟
همام : صوت مخيف ينبعث من جوانب المدينة ...
أحمد : لم أسمع شيئاً ...
همام : أغلب ظنّي أنه صوت نذير ...
أحمد : إنّه الوهم والخوف ...
همام : الحق أن قلبي لا يحدثني خيراً ...
أحمد : أعرف أن من عادتكَ الجبن ...
همام : دعنا من الكلام وهياً نبحث عن السرّ ...
أحمد : وما يهمني من هذا ...
همام : أنت الجبان ولست أنا ...
أحمد : سأنجو بجلدي وأفعل أنت ما شئت ...
همام : انظر ...
أحمد : رأيت شيئاً ...
همام : بعض نفر يسرون في شوارع خالية ..
أحمد : أهل المدينة ليسوا كلهم جامدين ...
همام : يظهر أن هناك استثناء ...
أحمد : دعنا نسألهم عن السبب ...
همام : هياً نتقدّم ...
أحمد : اسمع .. اسمع ...
همام : يا .. يا ...
أحمد : هم ينظرون إلينا ويلتقون دون كلام ..
همام : ها هو واحد منهم يتجه نحونا ...
أحمد : أهلاً وسهلاً ...
همام : مالك حزين ...
أحمد : أحزنتني حاله ...
همام : هل ألم بكم مكروه ؟
أحمد : (صمت) ...
همام : إننا نخشى من الجمود ...
أحمد : تخشون من الجمود ؟
همام : نعم ...

أحمد : عليكم بالخضوع لقانون المدينة فستسلمون ...
 همام : نسلم ...
 أحمد : بالتأكيد ...
 همام : ما هي نصوص القانون ؟
 أحمد : أهمها أن تكونوا سليعين من داء الثورة ...
 همام : هذا عجيب ...
 أحمد : وثانيا : أن تلتزموا الإجابة « نعم » دائما ...
 همام : ولكن لي حق الرّفص ...
 أحمد : إنهم يرسلون عليك قوة تجعل منك تمثالا ...
 همام : لم تخبرنا بخير ...
 أحمد : نصيحة لا غير ...
 همام : ماهذه الحصون العالية ؟
 أحمد : هي سجون الورق ..
 همام : سجون الورق ؟
 أحمد : فيها سجن الملك كل من تمرّد على قانون المدينة ...
 همام : هيا نتجّو بأنفسنا ...
 أحمد : الزم الصمت ودعك من الجبن ...
 همام : قلت لك : هيا لنهرب ...
 أحمد : علينا أن نواجه الواقع بشجاعة ..
 همام : أنت تريد أن تورطنا ...
 أحمد : يالك من جبان ...
 همام : الجبن خير من الهزيمة ...
 أحمد : أنت لم تفكّر في الانتصار أبدا
 همام : أسكت. الرّجل الذي جاءنا يستمع لحديثنا ...
 أحمد : قلت لك : أنت من جبنك لم تفكّر في الإنتصار أبدا ...
 همام : كيف تريدني أن أكون من هؤلاء ؟ ...
 أحمد : يا خبيثتي فيك ...
 همام : نحن قوم لا نشور حتّى علي أنفسنا ...
 أحمد : ما هذا الصّوت الغليظ المتردد في أرجاء المدينة ...
 همام : انظر إلى ذلك المركب ...

أحمد : هيا نذهب إليه ...
همام : دعنا ناكل خبزنا ...
أحمد : تخشى الجوع باستمرار ؟
همام : نعم ...
أحمد : أنا قد مللت الخبز والجبن !
همام : اغمس خبزك في شيء آخر ...
أحمد : أنا راض بما أنا فيه ...
همام : ألا تقتنع بما أوصيتك دائما ؟؟
أحمد : اذهب ودعني لشأني ...
همام : ستندم ...

* * *

سأل أحمد غرباء المدينة ببراءة :
- من سلسل هؤلاء ؟
فانقضَّ عليه السَّجَّانُونَ كالكلاب ورموا به في أقرب
زنزانة ، فهمس له رجل مخلص .
- كل شيء معكوس في هذه المدينة ...
سأل الغريب في حيرة :
- كيف أعرف الحقيقة ؟
أجابه الرجل المخلص :
- لا مجال هنا للحقيقة !..
فأردف الغريب :
- لا أستطيع العيش والطلاسم تحفني !..
أضاف الرجل المخلص :
- احذر... إنك في خطر ...
سأله الغريب في لاجاة :
- كيف ؟
قال الرجل المخلص وهو ينظر حواله خشية في الأعوان
المتسللين :
- حاول أن تفهم فقط ، إياك والسؤال ، إنَّ السؤال ذنب في
هذه المدينة ، وطلب الحق ذنب ، والرجولة ذنب ، والفكر
الناقد ذنب ...

سأل الغريب من جديد :
 - ما هي الحسنة عندكم :
 أجابه الرَّجُلُ المخلص :
 - أن تسير مع القطيع في صمت ...
 (سكت الرَّجُلُ المخلص).
 الرَّجُلُ : السَّجُونُ معتلثة ...
 الغريب : على النَّاس أن يغيروا ما بواقعهم ...
 الرَّجُلُ : أنت واهم ...
 الغريب : أبدا ...
 الرَّجُلُ : سمعت بخبر الطِّفْلِ الَّذِي شنق ؟
 الغريب : طفل قد شنق ؟
 الرَّجُلُ : نعم ... قتلوا بالأمس طفلا اسمه : الحق ...
 الغريب : وما ذنب الأطفال ؟
 الرَّجُلُ : أرادوا به التَّنْكِيل لا غير ...
 الغريب : يا لهم من جناة ...
 الرَّجُلُ : لنكسر سجون الوراق ...
 الغريب : نحن مسجونون في ورق مقوى ...
 حطَّم الرَّجُلُ أَوَّلَ سِجْنٍ فارتاح السَّجْنَاء وظنُّوا أَنَّهُم
 جنود الملك جاؤوا لسياقة بعضهم إلى ساحة الإعدام.
 خاطبهم واحد من القادمين :
 - جئنا لنخلصكم ممَّا أنتم فيه ، فهيا معنا لنحرق حيطان
 الوراق المقوى ...
 وسار الكل وفتحوا أبواب كلِّ السَّجُون ... ولم يستفق
 العسس لتعبهم بالنَّهار ، وتكوَّن جيش كبير من السَّجْنَاء ،
 واستفاق ذلك الحرس على ضوء اللَّهب المتصاعد واستفاق
 أتباع الملك ونشبت معركة بين السَّجْنَاء والحراس ، وعمَّت
 الضوضاء المدينة ، وهلَّل النَّاس لما رأوا طغاة المدينة يساقون
 في ذل للاستنطاق ... ولم يبد الفجر إلَّا والمدينة خاضعة
 للجماهير ...
 قال معلَّق أوَّل :

- الزَّمن لا يستقرُّ ...
- أجاب معلق ثان :
- كذلك تدول الدَّول ...
- قال معلق ثالث :
- الثَّورة تطير النِّفوس ...
- قال رابع وهو ينظر إلى بعيد ...
- الظُّلم لا يدوم ...
- أضاف خامس :
- كلُّ شيء بيد الإنسان ...
- تحدث سادس بحماس فقال :
- علينا أن نكون الثَّوار والأحرار إذا أردنا أن نخلِّص العالم من الشرِّ ...
- أجاب المعلق الأوَّل وهو يفرك يديه :
- لا شيء كالحياة والحياة في الفعل ...
- أردف أحد الصَّحاب :
- لقد مات عهد الكبرياء ...
- وعلق صاحب آخر على قوله :
- وانقضى عهد التَّمائيل ...

* * *

تحرك همَّام في أريكته بانزعاج عندما سمع ضجَّات سلاح قويَّة ، فظنَّ - وهو بين نوم ويقظة - أنَّ أحد السَّجناء بصدد اعدامه بالرَّصاص ، ففتح عينيه مرعوباً ، وحدَّق في التَّلَفاز أمامه فرأى أبطال الشَّريط من رعاة البقر لا يزالون في حرب حامية ، كانوا يتقاتلون مع فيلق من الشَّرطة بسبب غارتهم على أحد البنوك لنهبه. أغلق التَّلَفاز بعصبية ، ثمَّ ارتدى منامته واندس في فراشه وهو يهمس لنفسه :

- كيف يجوز أن نطلب الدُّنيا بقتل الآخرين ؟ ...

نور الدين بن بلقاسم

- حوار مع الطاهر فيثقة -

بمناسبة الندوة التي نظمها المركز الثقافي الدولي بالحمامات يومي 23 و 24 جويلية 1991 حول الطاهر فيثقة المبدع والمنشط الثقافي ، كان لنا هذا اللقاء مع هذا الأديب التونسي الذي كان خلال الستينات والسبعينات في صلب الهياكل الثقافية يعمل على اكسابها تلك الحركية التي تبرز ميزات الفكر في هذه الربوع.

شخصية الطاهر فيثقة شخصية ثقافية متنوعة مجالات العطاء ، عملت طويلا داخل الدوايب الثقافية دون ان تنالها الاضواء لايمان الرجل بان الثقافة سمة من سمات العصر وليس موقف فرد بحد ذاته. وكان الاستاذ الطاهر فيثقة ولد في 1922/12/30 بتاكرورفة من ولاية سوسة لكن العائلة سرعان ما انتقلت الى تونس العاصمة حيث زاول تعليمه الابتدائي بمدرسة رحبة الغنم (معقل الزعيم) ثم الثانوي بالصادقية وبمعهد كارنو بعد ذلك. ومن هناك احرز على شهادة البكالوريا سنة 1941. ونظرا لظروف الحرب العالمية الثانية تابع تعليمه العالي بالجزائر في مجال الاداب. وتحصل سنة 1944 على الاجازة في الاداب ثم على الديبلوم العالي للاداب الكلاسيكية. وقد أمكنه بعد ذلك الانتقال الى جامعة السربون لتهيئة التبريز في نفس الاختصاص لكنه لم ينهه وعاد الى تونس سنة 1949 كي ينخرط في سلك التعليم لمدة عشر سنوات درس اثناءها بالمعاهد الثانوية.

سمي الاستاذ الطاهر فيثقة رئيسا للمصلحة الاجتماعية

بكتابة الدولة للتربية القومية سنة 1959 ومنها اشرف على بحث ومتابعة برنامج محو الامية لدى الكهول وكان له فضل انجازه ثم انتدب سنة 1963 للعمل بالجزائر قصد اصلاح السياسة التعليمية بها. وقد التحق باليونسكو سنة 1965 مسؤولا عن المشروع العالمي لمحو الامية ثم رجع بعد سنة الى تونس حيث عين مديرا للتعليم الثانوي وكان ذلك سنة 1968. والحق بعد ذلك ابتداء من سنة 1971 بوزارة الشؤون الثقافية مديرا لادارة الفنون والآداب وقد شغل هذه الخطة حتى سنة 1973 اذ انتدب بعدها مديرا مساعدا للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وظل في هذا المنصب حتى سنة 1982 موعدا حالته على المعاش.

الاستاذ الطاهر ثيفة متنوع مجالات الابداع الثقافي فهو قد قرض الشعر وكتب المقالة والدراسة النقدية والقصة القصيرة وجرب الرواية والمسرحية وكذلك آداب الرحلة. كما انشغل بتحقيق التراث والابحاث التاريخية. وله من الآثار الادبية الكتب التالية :

- الصين الحديثة (رحلة) - تونس 1960 <http://>
- من اقاصيص بني هلال (ادب شعبي) ، الدار التونسية للنشر - تونس 1968.
- الملحة الهلالية (بالفرنسية) الدار التونسية للنشر - تونس 1968.
- نسور وضفادع (مجموعة قصصية) ، الدار التونسية للنشر - تونس 1973.
- درغوث رايس (دراسة تاريخية في قالب ادبي بالفرنسية)، الدار التونسية للنشر - تونس ، 1974.
- السيرة الهلالية لعبد الرحمان الابنودي (ترجمة للفرنسية) ، المؤسسة العامة للكتاب ، القاهرة ، 1978.
- الصخرة العالية (مجموعة قصصية) ، دار تركي للنشر ، 1988.

- مذكرات الاسكندرية الكبير ما تساس نسطور (ترجمة) ، الشركة التونسية للتوزيع - تونس ، 1989.
- تسع ليال مع كاليبسو (مجموعة قصصية) ، دار التركي للنشر ، 1991.

هذا بالاضافة الى العديد من المقالات والدراسات النقدية في مختلف الصحف التونسية والعربية (كما هو مبين بالجرد الببليوغرافي المرافق) وكذلك العديد من المداخلات في وسائل الاعلام السمعية والبصرية حول الأدب والأدب الشعبي والتاريخ.

خلال مسيرته الثقافية اشرف الاستاذ الطاهر فيثقة على ادارة المركز الثقافي الدولي بالحمامات لمدة تزيد على العشر سنوات (1967-1978) كما ترأس ايضا النادي الثقافي ابو القاسم الشابي المتفرع عنه نادي القصة. وهو اضافة الى ذلك عضو باتحاد الكتاب التونسيين منذ تأسيسه وكذلك عضو بالمجمع العلمي الدولي للغة الفرنسية منذ سنة 1968.

أحمد ممو

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

- حوار مع الطاهر قيقة -

سؤال :

ما تعني اليوم تاكرونة بالنسبة اليك من خلال ذكريات الصبي ؟ هل لها دور ما في تكوين شخصيتك ؟ كيف تقيم ذلك الآن ؟

الإجابة :

تاكرونة هي الموطن ومسقط الرأس وفيها ولدت واليها ارجع. ففي قريتي هذه كنت انطلق واتحرر. ورغم اني كنت ابن المدينة اذ ان والدي كان معلم صبيان في مدرسة ابتدائية (مدرسة رحبة الغنم بتونس الواقعة حاليا بمقل الزعيم) الا ان تعلق والدي بقريته وشدة ارتباطه بها جعلنا عائلة تقضي العطلة الصيفية هناك. واحيانا كنا نذهب اليها حتى اثناء عطلتي الشتاء والربيع. كان تعلق والدي بقريته يدفعه الى ان يقضي بها كل اوقات فراغه. أما انا ابن المدينة فكنت بحكم اني أقضي بها أغلب أوقاتي فعندما ننقل الى القرية أكتشف حريتي وأجد مجالا واسعا للانطلاق. كان انتقالنا الى القرية حدثا في حد ذاته اذ إن أبي كان يؤجر سيارة لهذا الغرض. وفي ذلك الوقت كانت سرعة السيارة لا تتجاوز 40 كلم/س وكانت تلك السرعة تبدو لنا في حينها مخيفة. وما أن ننزل القرية حتى أنزع حذاشي وانطلق حافيا ويتواصل ذلك ثلاثة اشهر ولا انتعل حذاشي من جديد الا عندما تحملنا السيارة من جديد في اتجاه المدينة.

في القرية كنت أحس انها مجال حريتي خاصة عندما

أنطلق متسلقا صخور الجبل وقريتي قضاء جبلي ذو واجهة صخرية ذات ندوب ومنعرجات. وكنت اتوغل في تلك الثنايا فاكتشف في كل يوم شيئا جديدا. وكم هي عديدة المنعرجات والمغاور والمشارف التي مازالت عالقة بذاكرتي... بالطبع كنت طفلا وفي مثل تلك السن كان أصدقائي من الأطفال وكنت أسعى أن أكون مثلهم ألبس البلوزة أو الجبة أو الكرية وكنا نمارس العديد من الألعاب وما زلت أتذكر صراعاتنا العديدة (القراش) ويحدث أن يطرحني أحدهم أرضا وقد أطرح بعضهم أرضا ثم نعود من جديد أصدقاء. كان همنا نحن الصغار الركض وراء الحمير وملاحقة الانعام وكان ركوب الحمير في ذلك العهد أسهل بالنسبة إلينا والركض وراءها هوايتنا المفضلة لذلك كثيرا ما كانت تطرحنا أرضا أو تركلنا وكثيرا ما كنا نسومها سوء العذاب.

أما في المدينة فحياتي كانت تختلف تماما عن ذلك إذ إن والدي المحافظ كان يرعاني من قرب ويحرم على الخروج الى الشارع إذ هو يعتبر ذلك بداية الانحراف بالنسبة لفتى مثلي. وبقدر ما كان يترك لي حريتي بالقرية كان يرى في المدينة مجالا للضياع إذ هو يعتبر أنني في القرية بين أهلي وأقاربي وكل العيون ترعاني كما هو الامر بالنسبة لبقية الصبية هناك أما في المدينة فالكل غرباء.

ومن ناحية أخرى فإن تاكرونة - وهذا يعود الى دور العنصر البربري في مجتمعها كحضارة وليس كجنس - وهي دائما مفتوحة الدور مشرعة الابواب طوال اليوم ولا يرد بعضها الا ليلا. وكنا نحن الصغار نتسلل حيث رغبتنا نشارك الجميع في ما يأكلون (خبز وزيت ، هندي تين... الخ) وفي ما يفعلون وكنا نأخذ ذلك من باب حرية الطفل ومشروعية تحركه في الفضاء الاجتماعي الذي ينتمي اليه. ولكن هذه الحرية وهذه المشروعية يأخذان مفهوما مغايرا مع سن المراهقة إذ تتفتح أعيننا على الفتيات والصبايا ويصبح

التقرب اليهن ومنهن شاغلا جديدا. ونبرز حريتنا تلك بمشروعية التواصل بين الجنسين في فضاء تلتقي فيه كل الصلات العائلية في بوتقة واحدة. ومثل هذه التشريعية لم تكن متوفرة لي بمدينة تونس. وقد اقترنت مرحلة المراهقة في ذكرياتي بتلك الحرية النسبية التي كانت تمكنني منها القرية لكي أكلم أي فتاة فيها انطلاقا من أننا في وسط عائلي مشترك.

أما ما تمتاز به تاكرونة في ذكرياتي فهو حضور المرأة في مجتمعها ودورها الواضح فيه. وهذا ما وعيته منذ كنت طفلا. فالمرأة هناك تعمل طوال اليوم إذ هي تنسج حصير الحلفاء الذي سيباع في السوق الأسبوعية بالنفيسة وهي تقوم زيادة على ذلك بكل شؤون المنزل أما الرجل فهو لا يتحرك إلا في فصلي الحرث والحصاد إذ هو فلاح بطبيعته أما خارج ذينك الموسمين فهو متكئ قرب المنسج يطبخ الشاي لزوجته وقد يحدث أن يذهب مرة في الأسبوع إلى السوق لبيع الحصير، وابتياح حاجيات الأسرة من هناك.

ميزانية العائلة هناك يبدأ المرأة إذا أنها هي التي تكسب وهي التي تدبر شؤون البيت. وإن كان الرجل ظاهريا رب البيت إلا أنه قل أن يتدخل في شؤون تسييره ولذلك كانت شخصية رب العائلة تتضاءل هناك في حين تطفئ شخصية المرأة وغالبا ما تكون المرأة في تاكرونة حازمة ، قوية ، مدبرة ومقتدرة. وهي زيادة على سعيها اليومي لتوفير القوت للجميع تراها صاعدة المنحدر إلى البئر حاملة قلالها في اتجاه القرية تسعى وراء الحطب في الجبل وتقف بين دخان قدورها توفر الطعام لكل فم.

من الصور التي مازالت عالقة بذاكرتي عن تلك المرحلة صورة لنسوة القرية كسرب من النمل يدبين راجعات من الجبل بأحمالهن من الحطب وعلى بعد خطوات منهن يسير

الرجل متأخرا لا يحمل في يديه الا الفأس او بقية حبل. وكان وجود الرجل ضروريا لكي يحرسهن وكن يقتربن من القرية مثقلات باحمالهن وذلك ما جعل المرأة في قرיתי أقوى من الرجل.

وقد مكنتني مرحلة صبايا في القرية من الاطلاع على وضعيات لم تكن المدينة لتوفرها لي واني لاذكر احدى تلك الجلسات التي يتجمع فيها الرجال لشرب الشاي أو للعب الورق وكان ذلك يعتبر في عرف القرية ضياعا للوقت والموارد الاسرة المحدودة اذ غالبا ما تكون تلك المقابلات من أجل مقاومة بسيطة بين الاصدقاء. وأني لذلك في يوم من الايام عندما رأيت احدى قريباتي وهي عائدة مثقلة بحملها من البئر وكانت امرأة حازمة مجدة وشديدة مع زوجها. وصادف ان كان يومها هناك بين الجماعة يلعب الورق دون ان يتفطن الى مرورها بجانبه وما راعه الا وهي تمسك به من قفاه فتحمله مثل الفرخ تجره الى البيت معنفة مقرعة.

هذا هو عالم المرأة في قرיתי ، عالم كله أنوثة وحزم وطغيان شخصية. وكثيرا منا كانت أفكار كثيرة في هذا الخصوص تجول بفكري خلال فترات الراحة والفراغ التي كنت أقضيها هناك. وقد لا يكون غريبا على شاب في مثل سني تلك أن أطرح على نفسي تساؤلات عديدة عن دور الرجل في مجتمع مثل ذلك وكيفية تقييم المجتمع لمنزلته. وفي النهاية ماذا يمكن أن يعني أن ، الرجل قوام ، في مجتمع مثل هذا ؟.. مثل هذه التساؤلات والاجوبة التي كنت اجدها لها هي التي دفعتني الى تعديل الكثير من مفاهيمي القائمة على الاراء المسبقة وبذلك كان شعوري بنسبية الاشياء منذ فترة مبكرة من ادراكي للاشياء. وقد أدركت في تلك المرحلة ان مفهوم الاسرة ودور الرجل فيها قد لا يكون الا واجهة اجتماعية ولكن ما هو أعمق من ذلك هو ذلك التفاهم وتلك الالفة التي تنشأ بين الرجل والمرأة في نطاق الاسرة

أما المفاهيم الاجتماعية التي تتحكم في ذلك المجتمع من قبيل أن الرجل سيد البيت وأنه قوام في جميع الحالات فقد تخفي وراءها حقيقة أكثر التصاقا بواقع الأسرة إذ كثيرا ما تكون المرأة هي المدبرة وهي الحكمة في الأوضاع الاقتصادية للأسرة.

سؤال :

هذه هي القرية .. أما المدينة فبالى أي حد طبعت طفولتكم ؟

الاجابة :

المدينة طبعت طفولتي بشكل مغاير إذ إن والذي كان يعتقد ويقول لنا ان بقاءه بالمدينة وقتي وهو عائد الى القرية لا شك في ذلك مهما طالّت المرحلة وبذلك كان يتخللنا شعور المنتجع الذي سيرفع خيمته ذات يوم من تونس لكي يعود الى القرية حيث جذوره، ولكن الظروف لم تسعف والذي بالعودة ودفن - رحمه الله - بتونس وكانت تلك هي مشيئة الاقدار التي أوجدتني جذورا في هذه المدينة.

بيتنا في المدينة يقع بحي شعبي (حي الحجامين قرب باب الجديد) يسكنه غالبية من أهالي الجريد وادي سوف، وهو في شكل بيت تقليدي بغرف ثلاثة ووسطية منزل مع بئر وماجل. ولم يكن في جيراننا أناس بلدية بل كلهم من أصل ريفي. وكان الحي يمتاز بالعديد من الدكاكين التي يبيع اصحابها الجريدية اللبن والتمر وكذلك العديد من دكاكين الشوائين (مراقزية). فهذا الاطار شعبي ينضج بروح أرباض مدينة تونس.

في فترات الشتاء كان المنزل يمتلئ بالاهل الوافدين علينا من القرية فالعمل الفلاحي يتوقف هناك وقد يحدث ان يجتمع منهم بذلك الشكل قرابة العشرين وكلهم أعمام

وأقارب وقد يقضي بعضهم معنا الاسابيع واحيانا كل الشتاء. وكان في المنزل فضاء للجميع ولم يكونوا يحسون بالضيق ولم يكونوا يثقلون علينا بل هي سهرات واسمار في جلسات عائلية يتوسطها الكانون وبراد الشاي وتعبق بخرافات القرية وحكاياتها. وهكذا كانت القرية تتحول شتاء الى المدينة اما صيفا فكنا نحن الذين نتحول اليها.

يمثل هذه الحياة لم يتوفر لي مجال واسع للاندماج في حياة المدينة خارج ذلك المناخ الذي توفره لي حياة العائلة بل كنت مغمورا بتأثير القرية وعاداتها بشكل اقوى مما كنت في القرية ذاتها. واني لانكر من جملة ما اذكر عن طيبة اقاربي وسذاجة تفكير البعض منهم خالة لابي وقد كانت عجوزا مسنة وكنت في تلك المرحلة تلميذا مبتدئا وكنت مغرما بكتاب القراءة وقد شد انتباهي نص عن ولد طيب اسمه محمد كثير البر بوالدته وقد كانت مريضة فجاءها بقهوة أعدها لها. ومن شدة اعجابي بذلك الولد قرأت النص على خالتي مفسرا لها الصورة المصاحبة وهي تبرزه بطربوشه العالي والقهوة في الطبق بين يديه مخاطبا امه المريضة المسجاة في الفراش. وكلما ذكرت اسم محمد سارعت خالتي بالصلاة والتسليم عليه ثم أهوت على الصورة تقبلها اعتقادا منها ان في تلك الشخصية شيئا من شخصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام...

كما اذكر ايضا انه في احدى تلك الشتاءات كان بيننا احد اعمامي الشبان. وكان يقيم بيننا لفترات تضيق فيها القرية عليه ولكنه كان مبتلى بالتدخين لذلك كان يوعزني من حين لآخر أن أتدبر له شيفارة من عند والدي ولم يكن يجر على طلبها بنفسه احتراماً له كما انه لم يكن يدخن امامه. وذات يوم أحس أنه قد أطلال الإقامة وكأنه فهم أنه أثقل على العائلة تجرأ على التوجيه الى والدي بالخطاب بكثير من الجدية والحزم في صوته طالبا منه توفير عمل ما

له اذ انه لم يعد يطيق ان يبقى مجرد ضيف ثقيل. وقال إنه يريد ان يشعر ببعض الاستقلال في إعالة نفسه على الاقل لتوفير تبغه ومصروف جلوسه في المقهى. ولم يكن من حل لذلك الا بتوفير عمل ما وكان المشكل لوالدي وليس مشكله الشخصي فوالدي ابن المدينة وبمثابة الأب يجد الحلول لكل الصعوبات التي قد تعترض ابناؤه واقاربهم.

فكر والدي طويلا قبل ان يتذكر انه في منزلنا الآخر الذي نملكه بالمدينة قد يكون جليز الغرف في حاجة الى اعادة الرصف لذلك اشترقت ملامحه وهو يعرض عليه ذلك العمل وكانت اشراقة ملامح الآخر أكبر وهو يمر من وضعية الضيف العاطل الى وضعية الأجير الكادح. وأصبح في اليوم الموالي نافخا أوداجه مزهوا بسطله وملعته منطلقا بسيفارته في زاوية فمه الى تقليب جليز الغرف الذي يمكن أن يدوم سنوات اخرى لو لم يفكر والدي في ذلك.

كان والدي معلما بنفس المدرسة التي تلقيت بها تعليمي. وكنت اصاحبه صباحا الى المدرسة واعد معه في المساء الى المنزل. ولم يكن يتركني اخرج واهيدا الى الشارع خوفا على من رقاء السوء بالمدينة في نظره ملغمة بالزوافرية. وبذلك كانت علاقتي بالمدينة لا تتم الا من خلال علاقتي بوالدي وكنت اشعر منذ صغري انه صديقي وكان يكاشفني بالكثير مما يجيش بداخله. وفي المرحلة الاولى لم يكن يخاطبني الا باللسان الفرنسي سعيا منه لتمتين معرفتي بهذه اللغة ولم يتخل عن تلك العادة الا عند دخولي التعليم الثانوي. في حين لم تكن امي تخاطبني الا باللهجة الدارجة.

سؤال :

كيف كانت مرحلة الدراسة بالجزائر ؟

الاجابة :

اقتترنت دراستي العالية بفترة الحرب العالمية الثانية

وكننت قد اعددت الاجازة في اللغة والاداب العربية عن طريق المراسلة مع جامعة الجزائر. وفي تلك الفترة لم يكن التنقل ممكنا. لكنني قضيت بعد ذلك سنة بالجزائر لاعداد ديبلوم عال في اللغة والاداب الكلاسيكية باللغة اليونانية وقد كان حول موضوع، درجات الوجد لدى أفلوطين (المدرسة الاسكندرية)، (L'extase chez Plotin) وقد قمت بتحليل لغوي لمفهوم درجات الوجد لدى أفلوطين هذا وختمت الدراسة بتحليل تأثير النظرية الاشراقية على الفلاسفة المسلمين.

لقد كانت تلك السنة حاسمة في حياتي اذ كانت السنة الاخيرة للحرب العالمية الثانية. وهناك اكتشفت مدى انتمائي العربي الاسلامي الى هذا الوطن وهذه الامة. وبذلك كانت تلك السنة حالة اشراق في تفكيري وقد جاءت على اثر فترة الحياة المنغلقة التي عرفتھا بمدينة تونس. وفي الجزائر اكتشفت ما يتعرض له الانسان العربي هناك من قمع وقهر وتعسف وكان ذلك ما اذكى في احساسي بالشعور الوطني. واني لاذكر مرة وقد كنا مجموعة من الطلبة عند عبورنا بقسنطينة من قطار لآخر واذا بشيخ جزائري يقف بين الاقدام لكن المعمرين الفرنسيين لم يتورعوا عن دوسه تحت اقدامهم بكثير من مشاعر الاستهانة والاحتقار ووقفنا نحن الطلبة منددين بذلك التصرف الهمجي الذي لم نعتده.

وقد تنامي عندي ذلك الشعور بالانتماء في مناخ يسيطر عليه العنف والكراهية. واني لاذكر في ظروف الحرب تلك وكانت فترة بطاقات التقسيط في التموين واللباس وكانت تلك البطاقات تمكّن الأوروبي من شراء اللباس اللازم له في حين ان العربي المسلم لم يكن له الحق في اقتناء اكثر من عشرين مترا من القماش لصنع السراويل اذ تعتبر السلطات الفرنسية ان بقية ملبوسه يعد من الصوف مباشرة. وطبعاً لم يكن ينسجم مع حاجياتنا كطلبة ولكن لم أجد من يستمع الى تشكياتي فاتجهت الى

مشيخة المدينة بالجزائر مبينا أنني وزملائي من الطلبة لا يمكننا الاكتفاء بتلك الامتار من القماش لاعداد السراويل. وكانت الاجابة أننا كعرب لا يخول لنا القانون الا تلك الامتار العشرين من القماش وبدا من الصعب اقناعهم باننا في حاجة الى ان يكون زينا كيبقية الطلبة الأوروبيين ولكن لم نكن قادرين على الاكتفاء بتلك الاجابة.

وفي تلك الظروف الخاصة جداً - إذ كانت الحكومة الديغولية بالجزائر حكومة مؤقتة والقانون العسكري هو الساري في المجتمع - أقدمت على الكتابة للوزير الفرنسي للتربية في الحكومة الديغولية المؤقتة وفصلت في رسالتي ما جوبهت به من فرض لتلك الامتار العشرين كلباس لنا نحن الطلبة العرب. ولم تزل رسالتي من تهكم واضح على تلك العقلية الضيقة التي تتعامل مع النصوص القانونية بمثل ذلك الجمود وختمت رسالتي بما معناه أنني ساضطر الى وضع ورقة عنب لستور عورتي مبينا أن هذه المعاملة التي لقيتها هي أبعد ما تكون عن المفاهيم الانسانية التي ننتظرها من حكومة تدعي أنها خلصت الشعب الفرنسي من وحشية النظام الهتلري.

ولم انتظر طويلا إذ جاءني استدعاء من وزارة التربية الفرنسية لمقابلة مدير ديوان الوزير. ووجدت في استقبالي فليب مارسسي وهو ابن وليام مارسسي وقد كان صديقا لوالدي. ورب صدفة خير من ألف ميعاد. وكان منفعلا عندما استقبلني وواجهني بحدة مبينا لي مدى ما في رسالتي من تهور في مثل هذه الفترة الحرجة والقوانين العرفية والمحاكم العسكرية التي لم تتوقف بعد. وأفهمني أن وزير التربية قد وجّه رسالتي الى شيخ مدينة الجزائر الذي لم يتردد في وصف موقفه بكل ما من شأنه أن يقدمني مباشرة للمحكمة العسكرية اذ يقول إنني قد تفوهت بما يسيء للنظام وقدحت في سمعة الوزارة والادارة الفرنسية. وأفهمني في النهاية

أن الوزير قد طلب منه ان يبحث مطالبي ويسعى لغلاق الملف بما لا يتنافى والنظام العام. فافهمته بدوري اني لست راغبا وزملائي في أكثر من الحصول على بطاقات تمكنا من زي عادي مثل بقية الطلبة الآخرين. وقد بدا لي متفهما جدا لموقفه واصدر اوامره في هذا الاتجاه.

وطبعا في مثل تلك الظروف كانت الحركة الوطنية الجزائرية تتحرك في نطاق السرية وقد انخرطت في تنظيم ما من تنظيماتها وكان نشاطي يتمثل في تحرير المناشير السرية وتوزيعها ومن هناك كانت بداية وعيي بالانتماء الى مشاكل الانسان العربي المسلم ومن هناك كانت ردود فعلي الاولى تجاه المجتمع بعد فترة الانكماش التي عشتها في تونس. لذلك كان طبيعيا جدا ان أجد نفسي ذات يوم وسط المظاهرات والرصاص يحصد الأرواح من حولي...

سؤال :

والان ماذا عن المرحلة الباريسية ؟ رغم ما جاء في حديثكم مجلة «المسار» (دورية تصدر عن اتحاد الكتاب التونسيين عدد 8 شتاء 1991) إلا أن ملامح هذه المرحلة بقيت في مستوى التلميحات ولم تتضح بما فيه الكفاية.

الاجابة :

دامت المرحلة الباريسية في حياتي اربع سنوات. وكنت قد انتقلت الى باريس لاعداد شهادة التبريز في الاداب الكلاسيكية. وقد كان ذلك مغامرة من طرفي اذ ان ذلك جاء مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقد كانت اعصاب الفرنسيين في تلك الفترة متشنجة بما فيه الكفاية وكنا 45 طالبا ولم يكن منهم من غير الفرنسيين الا انا ومولود معمري الجزائري وكان يشار الينا بالاصبع بصفتنا قد جئنا نزاحم الفرنسيين طلب الشهادة في بلادهم ولكن لا انا تحصلت على الشهادة ولا معمري استطاع ان يصبح اكثر

انتعاش لفرنسا ولو انه قد حمل السلاح معهم وحارب معهم واكتسب نصيبه من البطولة ، الا أنه في النهاية بقي جزائريا والان لم يبق الا ان نترحم على روحه وقد امكنه ان يصبح من كبار كتاب الجزائر باللغة الفرنسية.

وان كان كل منا قد اخذ طريقا مختلفا عن الآخر الا ان مولود معمري كان اثناء فترة الدراسة تلك زميلي وصديقي في تلك الظروف الصعبة. وقد استفدت كثيرا من تلك المرحلة اذ مكنتني خلالها ان اعمق معارفي في مجال اللغات، الفرنسية واللاتينية واليونانية.

لكن ما يبدو لي اليوم اكثر اهمية من معارفي تلك نظرا لما في تلك الظروف من صعوبات وتعدد ساعات الدروس فهي الحياة الثقافية التي امكنتني ان أعيشها خلال تلك الفترة. واني لا اذكر ان احدى دور الثقافة هناك وكانت تحمل اسم « دار الاداب » (Maison de lettres) وهو ناد للطلبة ترعاه كلية الاداب وتتم فيه الانشطة الثقافية التي يقوم بها الطلبة بدعم من كلية الاداب ومنظمة الصليب الاحمر (ويقع مقر هذا النادي قرب سنان شولتيس) كانت مجالا طيبا لي للتعرف على العديد من الطلبة من فرنسيين وآخرين بمختلف مستوياتهم خارج نطاق الدروس. وقد بينت لي تلك التجربة مدى خورائي الثقافي وجهلي المريع بالثقافة الفرنسية. فعندما يجتمع اولئك الاصدقاء واجدني بينهم وهم يتحدثون عما جد من اداب وموسيقى وما ينتاب العالم من تيارات حديثة ، كنت أشعر انا الذي يقف ثقافتي مع نهاية القرن 19 عند « مالارمي » و « فلوبير » في حين يناقش الآخرون افكار « سارتر » و « وكامي » ومختلف تيارات الوجودية ، لذلك كنت كثيرا ما ابقى صامتا انصت أكثر مما اتكلم اذ لا قدرة لي على المشاركة بثقافتي المحدودة في نقاشات كثيرا ما تذهب الى عمق المواضيع التي تطرح. اما عندما يتحدثون امامي عن الموسيقى الكلاسيكية

ويقاربون بينها وبين الجاز أو عندما يتعرضون للفنون التشكيلية والمسرح ، فكانوا كما لو انهم يتحدثون عن عوالم اخرى لا يعرفها... لذلك شعرت منذ البداية اني فاقد للثقافة لا قبل لي بمشاركة الآخرين نقاشاتهم وكان ذلك ما دفعني الى تمثين صلاتي بالآخرين وخاصة الشبان منهم. واقبلت على تلك المجالات الثقافية ارتادها تدريجيا فبدأت بالموسيقى والزمت نفسي بالتردد على الكنائس ليلا وخاصة البروتستانتية منها. وكنت استرشد في ذلك باحد اصدقائي الفرنسيين ليفسروا لي ما غمض عني من « باخ » ثم « موزارت » و « شوبان » وغيرهم.. وبذلك تكونت لي دائرة موسيقية تمكنني من التفريق بين موسيقي وآخر. وكنت استمع طويلا الى تلك الموسيقى ثم استمع بعد ذلك الى ما يدور حولها من نقاش.

اما في مجال الفنون التشكيلية فان هذا العالم كان بالنسبة لي جديدا تماما اذ ان الرسم لم يكن قد دخل بعد في ذلك العهد في مجال ادراك المجتمع الذي كنت انتمي اليه. وقد بدأت تجربتي امني هذا الاختصاص ابتداء من «متحف اللوفر» اذ تتبعت اطوار الرسم عبر القرون الى ان انتهيت الى العصر الحديث وبذلك تكونت لدي شبه ثقافة في الفنون التشكيلية وقد اكتسبت بذلك اطلاعا تاريخيا ساعدني عند اختلاطي بالشبان الذين يمارسون تلك الهواية من فهم مشاربهم وانتماءاتهم.

اما في خصوص المسرح فان ما كان يعرض في «دار الاداب» تلك من عروض مسرحية ساعدني كثيرا على ولوج ذلك العالم خاصة ونحن الطلبة كنا نتمتع بتعريف خاصة. وكنت انزوي دائما قرب السطح اتابع المسرحية بكثير من الشغف. وقد تمكنت خلال تلك الفترة من متابعة عرض ما يفوق التصور من المسرحيات.

بقي مجال الاداب الحديثة وقد امكنني ان اعمق اطلاعي عليها بالمطالعة المتواصلة وبذلك امكنني ان ادخل القرن 20.

اما الجانب العاطفي في حياتي خلال تلك الفترة فهو لا يخلو من اهمية اذ امكنني لأول مرة العلاقة التي قد تقوم بين الرجل والمرأة. وقد تعرفت في تلك المرحلة على العديد من الفتيات الفاضلات الجميلات وعن طريق تلك العلاقات بدأت اكتشف جوانب اخرى من الحياة.

سؤال :

مرحلة اشرافكم على محو الامية بالجزائر هل هي من باب الوظيفة او من باب الاقتناع بمثل العالم الثالث ؟

الاجابة :

لم يحدث ان اشتغلت بالجزائر في مجال محو الامية بل كان ذلك بتونس اما مهمتي بالجزائر فقد كانت في نطاق خبير لليونسكو لدى وزارة التربية القومية الجزائرية. وقد حدث ذلك مباشرة عند استقلال البلد الشقيق وكلفت بفحص قضايا ادارة التعليم عامة واصلاح ووضع برامج جديدة.

اما قضية الخبير الاممي فقد جاءت في تلك المرحلة نتيجة ما عرفت به عند اشتغالي بتونس في نطاق وزارة التربية القومية ببرامج محو الامية وكانت تلك الخبرة هي التي سهلت مهمتي ووجهت لي انظار اليونسكو.

اما ما ارغب في توضيحه اكثر فهو ان اتصالي بالاخوة في الجزائر لم يكن في البداية عن طريق اليونسكو بل ان الرئيس احمد بن بلة ما ان استلم الحكم وتقدم له السفير التونسي (السيد احمد المستيري) باوراق اعتماده حتى ابدى رغبته في ان تمكنني بلادي من اعانة الشقيقة الجزائر في اصلاح النظام التعليمي هناك وقد تركه الفرنسيون عند خروجهم في حالة متداعية اذ هم قد عطبوا حتى الحاسبات

التي تستعمل في صرف اجور رجال التعليم. وكانت الحكومة الجزائرية قد توجهت لي ببرقية في الغرض نظرا لمعرفتي السابقة بالرئيس بن بلة اجبت عنها في حينها بضرورة المرور بالقنوات الرسمية اعتبارا لاني موظف انتمي الى الادارة التونسية. وبذلك كانت فرصة تقديم اوراق اعتماد السفير التونسي هي الفرصة الملائمة بالتقدم بذلك الطلب للحكومة التونسية عن طريق رسمي. وخلال هذه الفترة كنت بباريس احضر اشغال دورة اليونسكو التي تدوم شهرا ونصفا وكان الوزير في ذلك العهد هو السيد محمود المسعدي ولم يكن في إمكانه بقاء كل تلك المدة هناك لذلك كان لا يحضر المداولات الا خلال اسبوع فقط ثم يترك لي رئاسة الوفد باقي المدة. وصادف ان استرخصت اثناء تلك الفترة للرجوع الى تونس لامر ما فوجدت ان الدنيا قد اقيمت بعدي واقعدت. وما ان قابلت الوزير حتى بادرنى قائلا :

- سي الطاهر ... سيتحول غدا الى الجزائر...

- الجزائر... <http://Archivebeta.Sakhril.com>

- الرئيس بن بلة طلبك شخصيا لمهمة...

حاولت ان افهمه اني في حاجة الى تفقد مكنتي وعائلتي وانه لا وقت لي لكل ذلك اذ بعد اسبوع يجب ان احضر المداولات لانتخاب المدير العام الجديد لليونسكو ، لكن الوزير لم يكن على استعداد لسماعي واحالني مباشرة على وزير الخارجية (السيد المنجي سليم) لافهم جيدا دقة الموقف. وما ان توجهت الى وزير الخارجية حتى استقبلني بكثير من الاهتمام موضحا لي ان السيد احمد المستيري ما انفك يطلبني منذ ايام فقد جاءت برقيته في البداية ثم تتالت مكالماته الهاتفية.. وفي النهاية فهمت ان لا مناص لي من تلك المهمة وعندها اخبرني السيد المنجي سليم انه كان واثقا من موافقتي لذلك سمح لنفسه بترتيب اجراءات السفر

واعلمني ان تذكرة الطائرة في انتظاري.. هكذا ذهبت الى الجزائر بطلب رسمي من الحكومة الجزائرية وقبل ان تتدخل اليونسكو.

وهناك في الجزائر وجدت السيد احمد المستيري في استقبالي وكذلك رئيس ديوان بن بلة. وبعد أن توجهت الى السفارة وفهمت جيدا اطار مهمتي قابلت الرئيس الجزائري الذي شرح لي ما ينتظره مني فوضحت ضرورة استدعاء مديري التعليم الابتدائي والثانوي والفني للتمكن من تقييم الوضع بصورة جيدة واقترح السفير ان أكون انا منسق الوفد. وما ان رجعت الى تونس حتى وجدت ان الوزارة قد عينتني على رأس ذلك الوفد.

صادف ان تزامن سفر ذلك الوفد مع بعثة اخرى من وزارة الداخلية لمناقشة مشاكل الحدود ومشاكل اخرى متعلقة بالشرطة وبالبנק المركزي وغيرها. ويبدو ان محادثات ذلك الوفد لم تتوصل الى نتائج ايجابية كما كان منتظرا مما دفع بالرئيس بورقيبة الى التصريح في خطابه الذي القاه انذاك بالقصبة الى استعداده لقطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر. وانجر عن ذلك الخطاب فتور العلاقات بين البلدين ثم قطعها وكانت عودتنا في نفس الطائرة التي رجع فيها السفير التونسي.

سؤال :

كيف ترون كتابة أدب الرحلة ؟

الاجابة :

صادف ان وضعت كتابا واحدا عن الرحلة وهو «الصين الحديثة» (1957) وقد اردت ان اتجنب فيه ما يجنح اليه الرحالة عادة من حديث عن عجائب المشاهدات وغرائب المخلوقات وما يتبعها من مبالغات. كما اني سعيت ان يعد

هذا الكتاب بعض ما في تجربة الصين من سعي للتححر وخاصة في مجالي التعليم والثقافة ، أملا في أن تفيد تلك التجربة تونس الفتية في جانب ما. كما اني كنت اتصور ان تلك التجربة يمكن أن تفيد مجموعتنا العربية في التفكير في المستقبل. وهي رحلة ذات اهتمامات وصفية لماشاهدته لكنها ايضا معلومات ونظرة تقييمية لتجربة شعب.

سؤال :

هل يمكن ان يؤدي ادب الرحلة بالكاتب الى السيرة الذاتية؟

الاجابة :

بالطبع فالكاتب حاضر في الرحلة باهتماماته ووجهة نظره الانتقائية التقييمية وكذلك بهوموه الشخصية. وهو يحاول ان يجد اجوبة عن اسئلة مطروحة تتعلق به أو بالمجموعة التي ينتمي اليها. هكذا اتصور ادب الرحلة وهكذا حاولت ان اعكسه من خلال ما دونته عن الصين.

سؤال :

اشتغالكم المتواصل بالادب الشعبي هل هو شكل من اشكال البحث عن الجذور أم هو بحث عن الذات ؟

الاجابة :

نعم هو بالاساس بحث عن الجذور. فاهتمامي بالادب الشعبي كان برا بوالدي رحمه الله وهو ما اشرت الى ذلك من قبل قد نهج في نفس الاتجاه. لكن اهتمامي كان فيه اختيار خاص دون غيره اي الادب الملحمي الذي يمثل في نظري الرفعة وسمو النفس ومن هنا كان انتقائي لهذا اللون الخاص من الادب الشعبي. وهذا ما يعكسه تعلقي بالهلالية سواء من خلال النص الذي اخرجته عن والدي او من خلال الهلالية المصرية والعمل المشترك مع عبد الرحمان الابنودي أو غير ذلك. فبالنسبة لي هذا الاختيار يأتي في القمة - وموضوع القمم هاجس في تفكيري - لذلك فاننا افضل

التفكير والسمو بالشعور وقد يكون ذلك من تأثير الروح الجبلية، بقي ان اشير الى ان الملحمة ايضا من جملة هواجسي العميقة وانا اعتبر الهلالية ملحمة باتم معاني الكلمة لذلك ارى صلتها بالملحمة اليونانية في ذلك الصراع بين الانسان ومصيره او صراع الانسان مع قدره.

عندما أهتم بالادب الشعبي فانا افعّل ذلك من وجهة نظر خاصة. فانا لم اكن في يوم ما باحثا لكي اصنف واقارن بل ما يجذبني هو فقط النفس الملحمي هذا اضافة الى جانب آخر يبدو ان الدارسين لم يلتفتوا اليه بعد الا وهو جانب الغزل (التشبيب) ومقارنة ما جاء فيه في الأدب المكتوب مع ما ترويه الرواة في الادب الشعبي. وكما قلت من قبل ان ميلي هذا مرتبط بسمو الفضاء واتساعه وهو ما توفره الملحمة من خلال وصفها للامتداد في الفياقي او في البحار وما فيها من اكتساح وانطلاق. ولعل ما يفسر اهتمامي الآخر بغزاة البحر والقرصنة وما فيها من اكتساح واتساع افق.

وفي الختام قد يكون في كل ذلك ربط بين القمم كما عرفت في تآكرونة والسهول كما هو في النفيضة والقيروان. ولعل ذلك سعي مني للانعقاد النفسي ونظرة الانسان عندما يكون في القمة تختلف عن نظرتة عندما يكون في السهل. ومن وراء كل ذلك تتوارد افكار عن مصير الانسان الذي يرفعه الزمن ويخفضه فيضطر ان ينزل الى السهول وقد تدفعه الحياة الى الشظف وقساوة الحياة ولكنه يبقى ابدا شامخ الراس كما تعلم ذلك عند القمة.

سؤال :

القصة القصيرة هل هي افضل صيغة للبلّاغ عندكم؟

الإجابة :

القصة القصيرة تناولتها ومارستها وكنت اريد ان اكتب الرواية الطويلة وكنت في البداية وقد شرعت في

كتابة رواية بالفرنسية منذ ثلاثين سنة لكني تركتها بعد برهة. وعندما سعيت لكتابة الرواية بالعربية لم انجح لذلك تركت تلك الطريق وسلكت اخرى تعتمد الاقتراب قدر الامكان من المسرحية (جنون سقراط وتسع ليال مع كاليبسو) وهي عندي محاولات لتطوير القصة القصيرة الى النص المسرحي. والآن عندي اهتمام وساقوم بمحاولات في هذا الصدد اذ ان أغلب نصوصي القصصية تغلب عليها الصورة المرئية. لذلك فكرت ان طريقتي الى السيناريو اقرب خاصة وهو يوفر الحركة ويفتح الطريق الى الافلام القصيرة والتلفزة.

سؤال :

كيف ترون مشاكل النشر الادبي اليوم في تونس ؟

الاجابة :

مشاكل النشر عويصة ولست ادري كيف يمكن تجاوزها اذ النشر عندينا صعب ومما يزيد في حد هذه المشاكل ان دور النشر لا تطبع الا عددا محدودا من النسخ (من 3000 الى 5000 نسخة على اقصى تقدير). وهذا الوضع لا يمكن الكتاب من الرواج. اعتقد ان النظرة التجارية البحتة التي لدى قطاع الناشرين واصحاب المكتبات تجعل النشر للكتاب المعاصرين في المجالات الادبية يواجه العديد من العراقيل وفي المقابل يكون الكتاب المدرسي هو المفضل لدى الناشر وكذلك الامر بالنسبة لكتب التراث. ولكن ما اعتقده ايضا ان لا امة يمكنها ان تتطور اذا لم تول فكرها المعاصر ما يستحقه من اهتمام. واذا سعينا الى مقارنة وضعنا بما نراه في البلدان المتقدمة نجد طغيان الانتاج المعاصر لديهم في المكتبات التي تسوق الكتاب في حين ان التراث لا يعرض الا في مكتبات مختصة او في اجنحة مخصصة لذلك. اما مكتبائنا فهي لا تزخر الا بالكتاب المدرسي وكتب التراث وهي بالاساس لا تقوم على بيع الكتاب بل على الوراقة.

سؤال :

كيف ترون مكانة الادب التونسي في الكتاب المدرسي ؟

الاجابة :

الادب التونسي موجود في الكتاب المدرسي بنسبة لا بأس بها وربما يحسن ان يكون اختيار النصوص فيه المزيد من التحري اذ نجد اليوم في كتبنا الغث والسمين وكثيرا ما تتدخل المجاملة او المعرفة الشخصية في تفضيل بعض النصوص وهذا ما يبدو لي لا مبرر له من وجهة نظر تربوية او ثقافية. كما ان الانطلاق من وجهة نظر وطنية ضيقة منحصرة في الافق التونسي يبدو لي غير سليم وفيه تضيق للافاق الفكرية للأجيال الناشئة اذ نحن بموقعنا الجغرافي وبماضيها التاريخي ننتمي الى ثقافة عربية اعم من تلك التي تحدها حدودنا الجغرافية. وما الالاح على الانتاج التونسي فقط **الا مبالغة في حماية الذات.** وتبقى القضية التربوية من وراء كل ذلك هي تدريب التلامذة والطلبة على الاطلاع على الادب العربي قديمه وحديثه وعلى كيفية التعامل معه دون اقتضار على بلدان اخر أو كاتب دون غيره.

سؤال :

وفي مستوى الجامعة ؟...

الاجابة :

اما في مستوى الجامعة فان القضية ليست في تغليب الانتاج التونسي على الانتاج العربي الاخر بدعوى التعلق بالوطنية الضيقة ولكن المشكل هو مشكل وضع مقاييس تعليم الادب العربي ومدى ملاءمتها لروح العصر.

سؤال :

هل ترون في الجوائز الادبية تشجيعا للابداع ؟

الاجابة :

نعم اعتقد ان الجوائز الادبية يمكن ان تكون تشجيعا للابداع الى حد ما اذ الجائزة لا تهم الا فائزا واحدا او فائزين قلة اما البقية فان وضعهم لا يتبدل. وبمعطيات وضعنا الخاص في تونس قد يحدث ان تكون المسابقة مغلوبة وقد تحجب ويبقى المشكل بالاساس كيف يمكن ان نشجع مجموع الكتاب لكي يبدعوا اكثر وبصفة جماعية متوازية ؟ اعتقد ان ذلك يكون قبل كل شيء بتشجيع النشر وتشجيع اقتناء الكتاب الادبي عن طريق التخفيض في تكلفته وثمان بيعه. فلو امكن للدوائر المسؤولة عن ترويج الكتاب ان تتحمل تغطية نسبة من ثمن بيع الكتاب حتى تقدم دور النشر على وضعه في متناول القارئ بثمن اقل وبعبدا عن متطلبات الربح المادي لمساعد ذلك على الاقبال عليه. كما ان تدخل الدوائر الثقافية المسؤولة يمكن ان يكون في شكل دفع للحركة الثقافية عامة لكي يدخل الكتاب الدورة التحويلية للابداع مروراً من شكله المكتوب الى شكل ثقافي اخر (مسرح ، تلفزة ، سينما ، ..) وبذلك يصبح الكتاب بداية حركة تحويل ثقافي. واعتقد ان اهم هذه التحويلات الثقافية هو التحويل التلفزيوني. ومادام ادبنا لم يتوصل الى الظهور على شاشة التلفزة فهو محكوم عليه بالحدودية. والتحويل التلفزيوني يمكن ان يعيد المشاهدين الى قراءة الاثر الادبي في نفس الوقت الذي يكون فيه وثيقة ذات كيان تلفزيوني.

كما اعتقد ايضا ان نمو القطاع الادبي رهين نمو التعامل بين المبدعين انفسهم اذ من الضروري ان يتم كسر الحواجز القائمة بين مختلف القطاعات الثقافية والتي تخلق العزلة في كل منها. والتشجيع المجدي هو ذاك الذي يضمن تواصل حلقات الدورة الثقافية.

سؤال :

هل لكم من تقييم لوضع الادب التونسي اليوم ؟

الاجابة :

لا اسمح لنفسي بتقييم وضع الادب التونسي الحالي اذ اني بعيد كل البعد عن النقد وما سأقوله الان يبقى مجرد خواطر وملاحظات عامة ارجوان لا تؤخذ مأخذ الحكم القاطع.

من جملة ما لاحظته ارى ان الشعراء كثيرون اكثر من طاقة استيعاب البلاد (150 شاعرا لسبعة ملايين مواطن) وان كنت قد بدأت بالشعر فلانه عندي في مقدمة الادب وهو كذلك عند جميع الامم وخلال كل العصور. لكن الشعر الذي يروج عندنا اليوم شعر على درجة كبيرة من الغموض مع الابتعاد عن المعنى. وما يعقد الوضع اكثر غياب المقاييس فحتى قضية الوزن - الذي يبدو لي طبيعيا في الشعر اذ ان النوق تسير حسب وزن ما وكذلك خيب الخيل - التي قد يعتبر البعض ان النقاش تجاوزها تبقى من جملة المقاييس الموضوعية التي تمكن من النغم من تذوق ما لسماع الشعر. اما الغموض المقصود فقد اصبح اليوم هدفا في حد ذاته في الكتابة الشعرية ويمكن لاي كتابة ان يدعي صاحبها نسبتها للشعر مهما كانت بلا وزن وغامضة. لكن ذلك لا يعني ان الشعر قد فقد في هذه الاصوات الشابة ، كل ما نحن في حاجة اليه ان تتضح الرؤية اكثر لنسبة من اولئك الذين ينتسبون الى الشعر.

في العقود القريبة كان المسرح هو راس الحربة في الدورة الثقافية عندنا اذ هو قد تأصل بما فيه الكفاية في هذه الديار. كما ان القصة القصيرة امكنها ان تبلغ مستوى راقيا من ذلك الذي عرفته الرواية مع الملاحظة ان الرواية اقل عددا. واليوم تبقى القصة القصيرة ذات حضور متميز في انتاجنا الادبي وان كانت الرواية ما انفكت تكتسح مجالات لم تعرفها من قبل القصة القصيرة.

سؤال :

هل ترون ان الادب التونسي لصيق بالمجتمع الذي يعبر عنه ؟

الاجابة :

المسألة فيها حالات تتفاوت بحسب الفترة الزمنية. ففي بداية السبعينات تميز المناخ الفكري والثقافي بحيرة كبيرة افرزت لنا القصة التجريبية وفي غير العمودي والحر في مجال الشعر. ورغم ما في تلك التجربة من معاناة فردية الا انها يمكن ان تؤخذ على أنها رد فعل فكري امام وضع اجتماعي صعب. وقد كان في استعمال الاشارات والمقاصد في تلك الكتابات ما جعلها تؤدي وظيفة الشهادة الفكرية الاجتماعية. اما الآن فان الوضع يبدو اكثر استقرارا على المستوى الاجتماعي ولكن هل ما يكتب عندنا اليوم يعبر عن المجتمع ؟ يبدو لي ان ذلك نسبي جدا. فنحن لم نتخلص بعد من القوالب والنماذج الغربية المحاكاة ويبدو أن ذلك هو ما يحجب عنا الالتصاق الحقيقي بالمجتمع. ومثل هذا التقليد ينعكس اليوم بشكل خاص في الكتابات الروائية.

ومن ناحية اخرى فأنا اعتقد ان الكتاب لا يولون ما حولهم العناية الكافية لمشاهدتها بتمعن وعمق لذلك تنعكس في بعض الكتابات الصور والتشابه التي هي صدى لمطالعات اصحابها اكثر مما يظهر انعكاس الواقع الاجتماعي او الاقتصادي.

بيبلوغرافيا كتابات الطاهر شيعة الصحفية

- المباحث : ع2-د ماي 1944 من 7
- المباحث : ع15-د جوان 1945 من 3-5
- الحياة الثقافية : ع15-د جوان 1978 من 93
- نشر الإنتاج الثقافي في الوطن العربي
- العمل الثقافي ع98-د 23 ماي 1983
- قرصنة أمّ جهاد في البحر
- الهداية 2/1 جانفي 1974 من 7-8
- قرصنة أمّ جهاد في البحر
- الهداية 3/1 أفريل 1974 من 31-34
- الإبداع أساس الثقافة
- مجلة فنون : ع1-د 1983 من 6-10
- ندوة قضايا الشعر المعاصر
- مجلة "دب" ع7-8-د 1981 من 11-14
- القصة في مجلة الفكر
- مجلة الفكر السنة 30-ع1-د أكتوبر 1985 من 39-63
- الشعر الشعبي بين الواقع والخيال
- الفكر ع4-د 31 جانفي 1986 من 24-28
- الثقافة العربية والمنظمات الدولية
- المجلة العربية للثقافة ع13-د سبتمبر 1987 من 53-63
- الثقافة المفتوحة
- قضايا الكتاب والمصطلح
- Tunis INSE 1976 P. 15-16
- الوجه الآخر للمسيرة الهلالية
- فنون ع6-د 1986 من 18-28
- L'appel de l'aube
- Aboul Quacium Chabbi
- Centenaire de la Banque de Tunisie
- من وحي الماضي (قصّة)
- مجلة الفكر-السنة 25-ع25-د 5 فيفري 1980 من 6-8
- جنون سقراط (قصّة) : السنة 25 ع6-د مارس 1980 من 14-41
- تسع ليال مع كاييسو (الليلة الثالثة)
- المسار ع7-د خريف 1990 من 60-66

بيبلوغرافيا ما كتب عن الطاهر ثيفة

- Férid Ghazi : le Roman et la Nouvelle en Tunisie M.T.E. 1970 p. 66-69
- مصطفى الفارسي : البطل في القصة التونسية حتى الاستقلال المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1985 ص 386-375
- Jean Fantaine : Aspects de la littérature Tunisienne contemporaine : IBLA 1974 ! p. 165-177

- مقابلة مع الطاهر ثيفة

- قصص ص 18 عدد (1971) ص 58-48
- حوار بلا بروتوكول مع الأستاذ الأديب الطاهر ثيفة المسار ص 7 عدد خريف 1990 ص 59-49
- قراءة في أدب الطاهر ثيفة (دراسة) أحمد السماوي المسار ص 7 عدد خريف 1990 ص 48-35
- عطية : الصباح - 20 سبتمبر 1989
- حمدي حمادي : La Presse 13 جانفي 1989
- عز الدين المدني : Dialogue ص 635 عدد 6 سبتمبر 1986
- Samira Dami - La Presse 29 Juin 1991
- Jean Fontaine - 20 ans la littérature Tunisienne

مجلة الفكر :

- السنة 1 : ع 2 ص 6 / ع 3 ص 48 / ع 4 ص 22 / ع 7 ص 8 / ع 8 ص 96
- السنة 2 : ع 1 ص 15 / ع 2 ص 19 / ع 6 ص 43 /
- السنة 11 : ع 1 ص 123
- السنة 13 : ع 4 ص 10 / ع 7 ص 21
- السنة 14 : ع 3 ص 8 / ع 10 ص 14 /
- السنة 15 : ع 1 ص 82 / ع 17
- السنة 16 : ع 5 ص 56
- السنة 17 : ع 10 ص 6

ملاحظة : هذا الجرد البيبلوغرافي مستخلص من النشرة التي اعدّها المركز الثقافي الدولي بالحمامات بمناسبة تكريم الطاهر ثيفة (جويلية 1991).

المرجعية القصصية لدى الطاهر فيفة⁽⁰⁾

الاستاذ الطاهر فيفة زيادة على حضوره الثقافي على الساحة الادبية منذ منتصف الستينات ، يمتاز بشخصية المبدع المتنوع الانتاج الثقافي. وهذا التنوع يعكس تميزا في هذه الشخصية التي امكنها ان تساهم في الابداع بقدر مساهمتها في تسيير بعض الدواليب الثقافية او التخطيط لنشاطها. وهو قد بدا الابداع منذ سنة 1960 مع كتابه «الصين الحديثة» ومازال مواصلا ذلك مع مجموعته القصصية ذات الشكل المسرحي «تسع ليال مع كاليبسو» (1991)

يبقى القصة هو الوجه المميز لكل الانتاج الادبي لدى الطاهر فيفة فهو منذ بدا اذ الرحلة مع «الصين الحديثة» كان مسكونا بهاجس القصة والحديث عن مشاهداته وموقفه منها. ثم عندما اخرج كتاب «من اقاصيص بني هلال» لوالده عبد الرحمان فيفة وجد مجالا ارحب للقصة كما كان منذ بداياته في شكله الشفوي. ويبدو ان الحكاية الشعبية بصفة عامة قد بقيت مهيمنة على هاجسه الابداعي اذ نراه في مجموعته القصصية الاولى «نسور وضفادع» ثم في مجموعته الثانية «الصخرة العالية» كثيرا ما يلتجئ الى الحكاية الشعبية يبحث في ثناياها عن ذلك المقوم القصصي الذي يبرر نقلها الى مجال المكتوب. وحتى عندما التجأ الى رحاب الادب والثقافة اليونانيين في كل من «جنون سقراط» و «تسع ليال مع سقراط» ، كان جانب القصة والحكاية هو الغالب على خطابه الابداعي. وفي نطاق هذا الخطاب المطبوع دائما برغبة الحكيم ووضع الاحداث في نطاق القصة او

الحكاية بصفة عامة تبدو المرجعية القصصية لدى الطاهر
ثيثة في نطاق المجالات التالية :

- الادب الشعبي والقصة الشعبية بصفة عامة

- تأثير الادبين الكلاسيكيين اليوناني والعربي وخاصة
في نماذجهما القصصية والملمحية.

1 - تأثير الادب الشعبي والقصة الشعبية :

لم يكن من باب الصدفة ان يكون اهتمام الطاهر ثيثة
بالادب الشعبي كبيرا الى درجة الغلبة على اهتماماته
الثقافية. وقد انعكس ذلك خاصة من خلال :

1-1 - مراجعته وتقديمه «لاقاصيص بني هلال»
(د.ت.ن ، 1968) ومن خلال المقدمة التي وضعها الطاهر
ثيثة لهذه الاقاصيص يستشف موقف ناقد محص للادب
الشعبي تحركه الكلمة الشعرية وتأثير الصورة الملمحية.
وهو في بعض مواقف هذه السيرة الشعبية «الباذة الادب
العربي الشعبي» أو «الباذة الاعراب» ليس كما قد ينظر
اليهم المؤرخ الرسمي من خلال ضربهم في البلاد من نجد الى
الصعيد ثم الى افريقية بحثا عن المرعى (الم يصفهم ابن
خلدون بانهم كالجراد المتواتر على افريقية ؟) بل هو يرى في
تلك التغريبة الملمحة التي تصف الامجاد وتتغنى بالبطولة
وتضع الابطال في مقارعة المصاعب وفي مواجهة القدر. ومن
وجهة النظر هذه يفسر الطاهر ثيثة تعدد روايات السيرة
الهلالية وتنوعها في الشخوص البطولية وفي الاماكن
المرتادة وفي استقطابها للاهتمام عند الطبقات الشعبية في
العديد من المجتمعات العربية والمتوسطية او الصحراوية. اذ
هي قد عبرت الاطلس ودارت جزر الكناري واجتازت
الصحراء الكبرى واطلت على مشارفها الجنوبية في مالي
والنيجر.

ما يرغب الطاهر ثيثة في التحدث عنه في خصوص
التغريبية الهلالية لم تستوفه مقدمة اقاصيص بني هلال
لذلك نراه يرجع الى الموضوع مجددا في مناسبتين :

- الاولى في ترجمة فرنسية للملحمة الهلالية (د.ت.ن،
1968).

- والثانية في ترجمة فرنسية للسيرة الهلالية اعتمادا
على رواية عبد الرحمان الابنودي (القاهرة ، 1978).

ويبدو ان كل ذلك لم يستنفذ كل ما يمكن ان يقوله
الطاهر ثيثة عن السيرة الهلالية اذ كثيرا ما اشار اليها في
العديد من مداخلاته الشفاهية او المكتوبة. وهو عندما
يتحدث عنها يكون يسعى للافصاح عما يحس به من لذة
المتتبع لنسق الحكاية وما يثيره في نفسه الجانب الملحمي
من صدى للاحم الاغريق وهو القريب منها بحكم دراسته
لغة اليونانية.

2-1 - تقنية لمضامين واشكال القصة الشعبية:

يبرز تأثير الحكاية الشعبية على ابداع الطاهر ثيثة
بصورة واضحة في مجموعته القصصية الاولى «نسور
وضفادع» (1973) وكذلك في مجموعته القصصية الثانية
«الصخرة العالية» (1988). فالمجموعة الاولى تحفل بجانب
مهم من قصص الحيوان اما المجموعة الثانية فان اغلبها من
مضامين القصة الشعبية التي طوعت لتقنيات القصة
القصيرة.

اما قصص الحيوان فتأخذ ابعادا رمزية في مناخ
اجتماعي تقوم فيه العلاقات على مفاهيم بشرية ترى تنظيم
العلاقات بين الافراد حسب قوانين التعايش والعدالة. ووراء
تلك الشخصيات الحيوانية يستشف القارئ مواعظ وعبر قد
يعكسها موقف الضفدعة من الفكرون الوقور وقد تكون
وضعية النسر المقعد هي حال المحبط الذي لم يسعفه وضعه

بامكانيات تحقيق ما يتعرف اليه. اما مجتمع الكلاب بكل ما فيه من تنوع الازواج واختلاف الوظائف فهو كاي مجتمع اخر يشكو تلك النقائص التي لا يعريها الا الكاتب الملتزم بذلك.

يمثل هذه الاجواء الحيوانية يجد القارئ عند قراءة «نسور وضفادع» صعوبة في استبعاد ظلال كتاب «كليلة ودمنة» لابن المقفع وان كان هذا الكتاب قد وضع في ظروف مغايرة (عبر السلطان) ومن منطلق فكري يختلف تماما. فالهدف الوعظي في قصة الطاهر ثيفة لا يغيب ابدا وان كان المقصود به هو القارئ بصفة عامة لكن تركيبة المجتمع الحيواني الذي يقدمه تقوم على نفس القوانين التي جاءت عند ابن المقفع (الظلم/العدالة ، المنافسة/الجزاء ، الحكاية/العبرة).

اما في قصص «الصخرة العالية» فان جذور القصة الشعبية تبدو اوضح كما في قصص «شهوة الصبية بالف مشرية» و «قاضي الكاف» و «عرق الجبين» و «قاضي سيدي بوسعيد» وخاصة في قيام هذه القصص على مقومات من قبيل الفقراء/الاعتناء، الخير/الشر، الغد/الخير. وهي مقومات تبين في النهاية ان فاعل الخير لا بد ان يلقي حسن الجزاء وان تأخر ذلك اما الظالم فهو في هلاك مهما استطاب العيش. فورا كل صراعات المجتمع بما فيه من ظلم وعدالة تقوم العدالة الالهية لكي تحفظ موازين الاشياء.

اما الفضاء في قصص الطاهر ثيفة فهو في اغلبه مجال القصة الشعبية المتصلة بالواقع. فاما ان يكون الفضاء قرويا ، بادية فيه الحقل وفيه الغيافي واما ان يكون فضاء حضريا فيه الاجواء البلدية وكذلك ايضا مجال الاحياء الشعبية المعقدة وروائي صحاف اللبلابي. وهو ايضا فضاء المسجد وسماره وكذلك فضاء طابية الهندي وجلاسها بحكاياتهم عما كان في قديم الزمان وبكدارينهم التي تمتص الزمن وتنمي تجذرهم في واقعهم.

هي بصفة عامة اجواء شعبية في اغلبها فيها السذاجة والطيبة وفيها صدق العواطف واحتدامها وذلك ما اضفى على القصة لدى الطاهر ثيقة ذلك البعد الواقعي الذي يعكس انتماء الكاتب وتجذره في الوسط الشعبي. وهي خصلة مكنت القصة عنده من ان تكون في متناول الانسان لانها حكايته.

2 - تأثير الاداب الكلاسيكية :

اذا كان مناخ القصة القصيرة لدى الطاهر ثيقة متشبعًا بتلك الروح التي تذكرنا بقصة الحيوان كما وردت في «كليلة ودمنة» بما فيها من عبرة وموعظة ، فان تأثير الادب اليوناني وخاصة الملحمي منه يبدو اشد واقوى وخاصة في المجموعة الاخيرة «تسع ليال مع كاليبسو». وتأثير الادب اليوناني القديم يرجع في اصله الى ذلك التكوين في مجال الاداب الكلاسيكية الذي عرفه الطاهر ثيقة اثناء دراسته العليا. وقد رأينا من قبل كيف ان روح الملحة قد اخذ بوجودان هذا الاديب منذ استشعر في «اقاصيص بني هلال» تلك المواقف التي عرفها من قبل في ملاحم الاغريق. فما الجازية في وجه من وجوها وهي تقود بني هلال الى قتال خليفة الزناتي بعد ان فنيت ابطالهم الا صورة قريبة جدا لتلك التي تعكسها الالبازة لهلين وابطال الاغريق تحت اسوار طروادة. وما انتجاع ذياب الهلالي معزبا بنوقه بغدامس و غاضبا من قومه الا كتيه اوليس يبحث عن اسباب الهزيمة التي مني بها ابطال الاغريق.

فالتكوين الاكاديمي الذي عرفه الطاهر ثيقة اثناء دراسته في مجال الاداب الكلاسيكية برز بشكل او بآخر في كتاباته وكلما تقدمت به السن كان رجوعه الى هذه المناهل التي تضع اشكاليات الفكر الاساسية القائمة حول مصير الانسان ومواجهته للقدر وموقفه من الموت والفناء. وقد كانت مثل هذه الاشكاليات المرتبطة بالفكر البشري منذ

وجوده هي التي اصبحت تسيطر بشكل واضح على تفكير الطاهر فيثقة كما يتضح ذلك من العناوين الفرعيين للكتاب الاخير الذي وضعه. فالليالي التسع التي قضها اوديسيوس مع كاليبسو وان كان فيها الكثير من استراحة المحارب الا انها في الاساس استراحة المفكر الذي يسعى الى ان يضع القضاء والمصير الانساني في معادلة مقنعة تفسر حتمية الموت وقابلية الانسان للفناء. وان كان الطاهر فيثقة قد اوردها في شكل افكار حملها اوديسيوس او حوارا قائما بينه وبين كاليبسو إلا انها تبقى في النهاية ، تمحيصا لما في حياته من تجارب وخبرة وان جعل من كل البشر اوديسيوسا - كل على قدر عزمه - يستجلي سابق حياته ويستشرف المقادير والنهاية. وقد ورد كل ذلك بنفس اقرب ما يكون الى روح الاوديسة يحمل اشكالية الوجود الانساني وثنائية القدر وسعي البشر العنيد.

اما العنوان الثاني في هذه المجموعة وهو «جنون سقراط» فقد جاء في شكل حوارية تقوم بين شخصين معاصرين لسقراط ينتقل بينهم ذلك الفيلسوف بحسب رغبة الكاتب في المرور من فكرة الى اخرى لكي تنعكس لدى القارئ في النهاية صورة متكاملة عن تصور الطاهر فيثقة لتدبر الحالة الانسانية وسعي الانسان وتدخل القدر في توجيه حياته.

3 - خلاصة :

كل ابداع الطاهر فيثقة القصصي يجد مبرراته ومرجعياته في تكوين هذا الرجل واهتماماته اثناء حياته الثقافية وان كان وراء كل ذلك هاجس اساسي متمثل في اختيار الخطاب القصصي كموقف تعبيرى.

فهذه الحاجة للحكي التي كانت تسكنه منذ البداية برزت في شكل ادب الرحلة الذي جرب عن طريقه الطاهر فيثقة ان يقص ما يفكر فيه وان ينقل عن طريقه شيئا ما من مشاهداته. وهو من خلال هذا الموقف يتقمص شخصية

الراوي دون موارد. ومع تعمقه في استكناه خفايا الادب الشعبي، اكتشف هذا الكاتب استجابة الحكاية لهاجسه التعبيري. وما اهتمامه بالقصة الشعبية بعد ذلك ثم باللمحة في شكلها العربي (السيرة الهلالية) ، الا نهل من ذلك المعين الذي وجد فيه ما يرضى وجدانه الحكائي. واثناء تلك التجربة جاءت القصة القصيرة لدى الطاهر ثيفة ترشح انتماء لتلك الجذور التي منها استقى فهي متجذرة في الوسط الشعبي الذي عرفه وهي بقدر ما فيها من محاولة لتبني تقنية القصة القصيرة المعاصرة تحمل بعدا غير خاف فيه العبرة والموعظة كما هي القصة الشعبية.

وما عودة الطاهر ثيفة بعد ذلك الى مجال الادب الكلاسيكي الا تعميق لفكرة حول تلك المسائل الفكرية التي اصبحت تسيطر على اهتماماته في نفس الوقت الذي يربط فيه بينها وبين انتمائه الشعبي.

فالمرجعية القصصية لدى الطاهر ثيفة هي حكاية بالاساس تقوم على سنيين اساسين هما :
- الحكاية الشعبية كما تغلغل في وجدانه منذ طفولته الاولى وكما تركتها في خياله حياة القرية التي مازال متعلقا بها.
- التكوين الادبي الكلاسيكي خلال فترة النضج الفكري.

أحمد ممو

(0) قدمت هذه المداخلة في نطاق الندوة التي عقدها المركز الثقافي الدولي بالصمامات يومي 23 و 24 جويلية 1991 لتكريم الطاهر ثيفة.

- الولية رحيمة -

- لا أدري لماذا تمنعين يا امرأة. الشفاء بين يديك وأنت ترفضين الانتفاع به. لقد ضقت ذرعا بعنادك ويئست من إقناعك. لم يبق إلا أن أعيذك الى منزل والدك لترتاحي وتريحيني. هل هذا ما ترغبين فيه ؟ لم أر إلى اليوم امرأة في مثل حماقتك وعنادك.

وصفق الباب وراءه قبل أن يتردد في الممشى صوت خطواته الغاضبة... التفتت نزيهة تبحث عن منديل لتمسح فيه يديها من الماء الذي بللها أثناء غسلها للماعون ، ثم أخذت من قفة معلقة في الحائط رأسا من الثوم بدأت تفكك حباته...

كل يوم تعود نفس الأسطوانة.. أسطوانة مشروخة لا تنفك تكرر نفس الكلمات : ستخربين حياتك بعنادك هذا ، ما ضرك من ذهابك في المرة السابقة ، ولية صالحة يقصدها جميع الناس للتبرك بها ، أم أنك لا تريدين أن تحملي مني. قولها كلمة صريحة : إنك لا تريدين أن يكون لك أطفال من صلبى. لعلك كنت تطمحين إلى رجل أفضل مني ، أو لعلني لم أملا عينيك.

وترقرقت عبرة من مقلتيها وهي تستعرض كلمات زوجها ، وبقوة - استمدتها من إرادتها - حاولت أن تكتم دموعها التي يفيض بها قلبها. وتخيلته وهو يرفع إصبعه متوعدا إياها بالطلاق ، ثم وهو يستسمحها ويقسم لها أن لا يعود إلى ذلك الموضوع ثانية.

وتساءلت هل تذعن لرغبته وتنقذ ما يأمرها به. لكن ألف صوت تردد في داخلها مردداً كلمة لا ! فهذا فوق طاقتها... إذن ماذا تفعل ؟ هل تبقى مكتوفة اليدين في انتظار أن تدك حياتها وتنهار بعد أن عملت المستحيل للمحافظة عليها ؟.

بقي إذن أن تصارحه بالحقيقة. وماذا سيكون موقفه. سيطلقها بدون شك ، ستنهض حياتها وتعود لمنزل والدها لتقضي فيه بقية أيامها. وكلام الناس... والفضيحة.. والبيوت التي ستندك على رؤوس أصحابها ، والنساء اللواتي قد يصيبهن ما أصابها ... لا .. هذا لن يكون أبداً. الأفضل لها أن تدفن سرها في صدرها لتخفيه عن أقرب الناس لها ، والويل لها الويل إن فرطت في ذاك السر وجهرت به لأحد من الناس.

افتراض ثالث وثب إلى ذهنها طردته بحركة عصبية من يدها ، إذ ماذا لو انكشفت الحقيقة وروى إحدى النساء الأمر وأذاعته بذلك بين الناس...

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أيقظها من أفكارها صوت خطوات يسبقها طرقات عكاز. ولاح من الباب شبح حماتها تتوكأ على عكازها وقد انحنى ظهرها وتقوس حتى كاد يلامس الأرض. لم تتحرك نزيهة في جلستها بل اكتفت بأن ألقت على القادمة نظرة خاطفة ثم عادت إلى عملها ، تقشر الثوم وتضعه في إناء إلى جانبها.

بحثت الحماة المكان بعينيها تفتش عن شيء تفرشه ، ثم انحنى على زريبة صغيرة موضوعة فوق كرسي ورمت بها إلى الأرض وهي تتأوه من أوجاع ظهرها. أسندت ظهرها إلى الحائط واعتدلت في جلستها ثم التفتت ناحية كئنتها.

كانت نزيهة تواصل عملها بتركيز بالغ كأن لا أحد يجلس إلى جانبها. أحست بنظرات حماتها تتركز عليها ،

فتسارعت حركة يديها. وما عتمت أن قامت الى اللحم
فقطعته إلى أربع قطع صغيرة ووضعت على النار مع قليل
من الزيت والبصل.

تنحنحت الحماة وهي تنظر إلى الإناء كأنها تنتظر أن
تهدا حركة الزيت لتبدأ كلامها قائلة :

- لا تعتقدي - يا ابنتي - أنني أكنّ لك كرها أو بغضاء.
يعلم الله أن قلبي انفتح لك منذ أوك يوم رأيتك فيه ، وأنني
أحبك كواحدة من بناتي. بل لعلني في كثير من الأحيان
أفضلك عليهن. فأنت زوجة ابني الوحيد وستكونين أمّا
لابنائيه شرط أن تطيعي زوجك وتطاعيني. فلن يرزقك الله
ابناء إلا إذا تقربت له. وليس أقرب إلى الله من أوليائه.
فأطيعي يا ابنتي ولنذهب معا إلى أولياء الله الصالحين
نرجو بركتهم ورحمتهم. ثم نقصد اثر باب الولية الصالحة
فمن يقصدها لا يخيب أبدا.

أطرقت نزيهة برأسها ، وقد اعتراها وجوم ، وعلت
خديها حمرة خفيفة لم تطفن لها الحماة التي واصلت كلامها :

- مضى أكثر من سنة على زواجكما وأنت تعلمين أنك
إذا لم تنجبي فإن نسل الأسرة سيتوقف عند زوجك. فمحمد
ليس له إخوة لينجبوا بنين يحملون اسم العائلة ، وأملنا
فيك كبير. والحقيقة لقد قرأت التذمر على وجه ابني وإنني
لا أرضى له أو لك أن تفترقا.

تعمت نزيهة بشفتيها كأنها تهمّ بالكلام ، ثم أغلقتهما
في صمت ...

- في المرة الماضية لم يستقرّ الطفل في بطنك. طالما
نصحتك أن تذهبي لأحد الأولياء وتنذري له ذبيحة إذا ما
وصل ولدك بالسلامة ولكنك كنت ترفضين باستمرار. وها
أنت مرة أخرى تعاندين وترفضين أن تدوي نفسك.

وانزلت كأس من يد نزيهة وهي ترفعها لتضعها على الطاولة ، واختلطت حبات الثوم بكسور الزجاج.. انكفأت على الأرض تلتقط حبات الثوم وتبعد بيدها الأخرى الكسور.. هل تخبرها بأن ولدها لن يكون له نسل وأن اسم العائلة كتب عليه أن يتوقف عند ذلك الابن أم هل تخبرها بمغامرتها التي عادت منها بأحزان وصور لن تفارقها ؟ أم هل تكتفي بإعلامها بأنها هي التي تعمدت إسقاط الجنين والتخلص منه...

وهاهي الآن تطلب منها أن تعيد التجربة ، بل هي ذي تلج عليها وتشتد في الإلحاح ؛ فهل تنفذ رغبة حمايتها وتمنح لها ولابنها سعادة مزيقة وابنا مزيقا...

ولاحت لها غرفة الولي وهي تلج بابها صحبة حمايتها. وانبعثت إلى أنفها رائحة الشموع التي تحترق في أنحاء الغرفة ، ثم بدا لها ضريح الولي وقد تصدر المكان وأحاط به سياج خشبي ذهني باللون الأزرق ، في حين انتشرت النسوة فرادى أو متعلقات ، بعضهن يبعن ما تحمله قفاهن من سواك أو لبان.. والأخريات يتفحصن ما بين أيديهن من ثياب أو أقمشة.

وإلى جانب قبر الولي، أمسكت امرأة بالسياج الخشبي وهي تهتف بضراعة :

« يا سيدنا ، يامولانا ، أنجح لي ابني في الامتحان. هذه المرة الثالثة التي يعيد فيها نفس السنة. إن لم ينجح هذه المرة فسيكون ماله الطرد. يا سيدنا خذ بيده وسأهديك هدية ليس لها مثيل ! »

دفعتها حمايتها إلى مكان الضريح وأمرتها أن تمسك بالخشب. وانساب صوت الحماة متوسلا :

« يا سيدنا فرج كربنا وحل عقدتنا ... »

والتفتت إليها تأمرها أن تردّ تلك الكلمات. وتمتعت
نزيفة تعيد ما تجود به قريحة حماتها من دعاء. وتساءلت ،
وهي تنظر إلى الحجارة المتراكمة : إن كان بمقدور مثل تلك
الحجارة أن تسمع وتستجيب للدعاء.

ولم تتوان بعد الخروج من الزيارة عن سؤال حماتها.

- هل بمقدور الأموات أن ينفعوا الأحياء .

وبصوت علاه الخوف أمرتها حماتها بالسكوت.

- لو يسمعك مولانا فستنسّد في وجهك أبواب رحمته
ولربّما تركك عاقرا مدى الحياة ، هذا إن لم يصيبك مكروه
آخر.

وسمعت يوما وهي تفتح المذيع أن التقرب إلى
الأولياء الصّالحين والتّزكّي إليهم هو نوع من أنواع الكفر
باللّهِ والإشراك به ، وأن من يريد أن يطلب حاجة فعليه أن
يطلبها مباشرة من اللّهِ دون اللّجوء إلى وسطاء ، فاعادت ما
سمعتة على حماتها التي ردّت غاضبة.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- أتريدان أن تجلبي لنا غضب مولانا. أما سمعت الذين
سكنهم الجن بعد أن حلّت بهم لعنة الولي. لقد كانوا لا
يؤمنون بكراماته ويكثرون من التعريض به.

ومرة أخرى تردّد صوت الحماة غاضبا :

- ... الفطور يحترق !!

وامتلأت خياشيم نزيفة برائحة البصل المحروق فأسرعت
تسكب الماء في القدر. تنهّدت الحماة بصوت مسموع ،
وقالت:

- عقلك دائما غائب. في القديم كان يكفي أن يشمّ الرجل
رائحة الحرق في الطّعام حتى يطلق زوجته أو يسكب القدر
على رأسها أمّا الآن فهم ياكلون المحروق ولا يتكلّمون.

وأخذت نزيهة مهراسا وضعت فيه قليلا من التوابل
وحبات الثوم المقشرة وبدأت دق الخليط.

انتظمت حركة يدها ، وتردد صوت الضربات في أنحاء
المنزل.. منذ ستة أشهر كانت تنتظر خروج حماتها وزوجها
لتأخذ المهراس وتدق الكمون ثم تبتلعه دفعة واحدة وجسمها
كله يتقرّر. حاولت كل الطرق لتجهيز ما في بطنها. كانت
تصعد فوق السلم وترمي بنفسها إلى الأرض. وفي إحدى
المرات اشتدت بها الآلام الى حد اعتقدت معه أن نهايتها قد
حانت ولكن رغم ذلك لم ينزل الجنين من بطنها. كان عنيدا ،
أبى أن يخضع لجميع محاولاتها، وأخيرا سمعت بوصفة
جديدة لم تتوان عن تجربتها... غلت بعض الأعشاب التي
تنبت في قمة الجبل وشربت ماءها دفعة واحدة. كان في
مرارة الحنظل أو أمر ، وكادت من شدة الألم تتقيأ معدتها...
المهم أنها استطاعت التخلص من ذاك الشيء الآخر ، من تلك
الكتلة من اللحم التي أحسست دائما أنها غريبة عنها ، لا
يربطها بها دافع الأمومة... لم يكن رأس الجنين قد تشكل بعد
حين ألقى به رحمها ، كان مجرد قطعة لزجة حمراء ، خليط
من اللحم والدم.

وقامت مناحة في الدار.. حماتها تبكي حفيدها الذي
ضاع ، وزوجها يصفق الأبواب في عنف ويضرب بقبضته كل
ما يجده في طريقه ، وأخواته يصرخن ويعولن على ولي
العهد الذي ضاع.

وانتظروا منها بعد ذلك أن تحمل ، فالزواج لا عيب فيه
ما دام قد استطاع أن يخصبها في المرة الأولى ، العيب فيها
هي التي لم تحسن الاحتفاظ بالجنين والتي ترفض الاستعانة
بأولياء الله الصالحين.

واندفع صوت الحماة قائلا :

- ما ضرك من ذهابك في المرة الماضية. ألم تكتشفي

حملك بعد مدّة ، وجيزة. ثم ألا تذكّرين في السّنة الفارطة عندما ذهب زينب إلى الوليّة الصّالحة رحيمة. ألم يتبيّن لها بعد شهرا واحدا أنّها حامل. وها هي منذ أيّام وضعت ابنا كأنّه البدر في كماله.

كلّ ما تذكّره الآن هو تلك اللّيلة التي قضّتها في غرفة الولي. انصرفت حماتها بعد أن تركتها بين يدي الوليّة رحيمة. كانت الأخيرة ترتدي جلبابا أسود يغطّيها من أعلى رأسها الى أخمص قدميها. ولم يكن يبين منها إلّا وجهها الذي تنبثق منه عينان سوداوان حادثان يتطاير الشر من نظراتهما. وفوق العينين امتدّ حاجبان رقيقان يفصلهما أنف طويل يكاد يخفي تحته شفتين قويّتين أغلقتهما صاحبتهما في حزم.

وانكأت نزيهة على الفراش الذي مدّته رحيمة على الأرض ، واختفت الوليّة بعض الوقت لتأتي بشراب أسود اللون أمرتها أن تشربه. - هذا دواء للعقم لا مثيل له في العالم.

وأخذت الوليّة تمسح بيدها على جسد نزيهة الغصّ متمتعة ببعض الرّقايا. وبدأ النّعاس يتغلّب على الزّاخرة في حين كانت لمسات الوليّة تزداد قوّة وأنفاسها تزداد اضطرابا. وغرقت الدّنيا في الظّلام ، وحاولت نزيهة أن تقاوم ، لكن سرعان ما ارتخت قبضتها وغرقت تحت الجسم اللّاهث الذي رقد عليها.

وحركت نزيهة رأسها في حركات عصبية كأنّها تريد أن تفسخ من ذاكرتها تلك الصّور التي تتردّد عليها باستمرار. وأسرعت تضع التّوابل في القدر ، ثمّ شرعت في قطع الغلغل. وقالت حماتها :

شكشوكة نابلية.. سيفرح ابني كثيرا ، فذاك هو طعامه المفضّل. لقد قرب موعد وصوله. لن يتأخّر أكثر من هذا.

وما هي إلا لحظات قصيرة حتى سمعت المراتان صوت الباب الخارجي وهو يفلق ، ثم سمعتا صوت خطوات بطيئة تتقدم من الباب ، ثم تتوقف أمامه كأنها تتردد في الدخول. وببطء انفتح الباب ، وأطل منه الزوج وقد علت وجهه صفرة الاموات. وبصمت رمى بجريدة يحملها في يده إلى نزيهة وأمرها في هدوء عاصف :

- اقرني.. اقرني خبر خيانتك ... خبر الفضيحة التي سترمي بنا الى الوحل.

وبصوت خافت ازداد خفوته إلى أن تحول الى همهمة غير مفهومة قرأت نزيهة :

« القبض على رجل يدعي أنه وليّة ».

ألقت الشرطة القبض مساء أمس على مجرم معروف بسوابقه العدلية. وقد تم القبض عليه إثر بلاغ قامت به إحدى السيدات مفادها أنها قصدت للتداوي من العقم مقام أحد الأولياء الصالحين وهناك اقترحت عليها الوليّة التي تسكن المكان أن تبني ليلتها عند مقام الولي لتشفيها بفضل رعاياها النافعة. واستجابت الضحية إلى أمر الوليّة المسماة برحيمة. ولكنها سرعان ما اكتشفت أن الوليّة لم تكن إلا رجلا متنكرا في زي امرأة وقد صرّحت المجني عليها أن المتهم - أو المتهمّة - قام باغتصابها رغم محاولتها الدفاع عن نفسها. ومع القبض على المتهم واستنطاقه ، اعترف بكل مناسب إليه وأقر أنه كان يعطي للنساء اللواتي يقصدنه مشروبا منوما. وعندما يستسلمن للنوم ، كان يقوم بإخصابهنّ، وقد نجحت العملية مع العديد من النساء اللواتي جئن للتداوي ...

نجاح يوسف

- قاف وهاء -

س عالم بيولوجي. أزعجه الظلم الذي حاق بالبشر. المجازر والحروب والابادة. القوي يفتك بالضعيف ، يمتص دمه ، يسلب خيراته ، يقتل أحلامه. ان لم تتسلح بأسباب المناعة والقوة ، فاستسلم لمنطق العصر.

س يبحث عن دوره. العلماء يكتشفون ، يستنتجون ، يخترعون ... لكن المقادير ليست في أيديهم. العلماء - وهو واحد منهم - في مختبراتهم ومراكز أبحاثهم عاكفون.

س يعيش في مجتمعه الفقير. الهموم كثيرة ، والمشاكل مزمنة ، والمظالم لا تحصى. أين دوره ؟ لا بد أن يفعل شيئاً. يصنع العلم المعجزات. لكن الجماهير مطحونة. لعبة السياسة قذرة. والمجتمع الفقير مغلوب على أمره.

عظمتك أيها العالم أن تنتصر لفكرة تؤمن بها. العلم المجرد وحده لا يكفي. تستنفره عناوين الصحف. يعيش التوتر في أعلى درجاته. نحن نعيش في غابة. وحوش الغابة أخف ضراوة. يتخيل س شعبه وقد انتصر على الدسائس ، واستجمع قواه الذاتية لينهض بنفسه. كيف يحدث ذلك ؟ لا بد من قوة. الايمان بالحق وحده لا يكفي.. الغلبة للقوي.

س فرد، مهما نبغ في علمه، هو فرد. يستحضر هموم أمته ومواجهها. تؤرقه الصحف. تزعجه العناوين الحمراء والسوداء. العلاج الناجح هو امتلاك القوة.

الكلمات سهلة ، التبريرات أسهل. الخداع ، خداع

النفس، لغة مريحة. النظريات عقيمة، الجدل كثير. لوى
عنق الكلمات، سيء مألوف. لكن القوى يحقق أهدافه،
والضعيف يزداد ضعفا. فماذا أفدت يا أيها السنين في الخضم
الجارف ؟.

واتته فكرة ! كي ينتصر شعبك ، لا بد من قوة أقوى مما
يملك الغريم. السلاح ، تكنولوجيا العصر .. س لا يقدر -
بامكانيات تخصصه ، أن يحقق شيئا. لكن الفكرة مسيطرة.
لا بد أن يكون الانسان أقدر على التدمير من خصمه. قد
يتراجع الخصم .. ويجلس الاثنان على قدم المساواة على نضد
اجتماعات ، يتبادلان المصالح والمآرب ، وتحقن دماء الفقراء.
س يعيش أيام العسر ، تضمنه الفكرة ، يقلبها على
شتى الوجوه. يبوح بها لزوجته. ترنو اليه صامته. ثم تقول
في حزم :

- لن تغير الكون..

صديقه الوحيد ، أستاذ التاريخ ، يعلق تأصحا :

- اذا أردت القوة ، فلا بد من تغيير تاريخ قرون مضت ،
بسلبياتها وهمومها !. مازال التفاؤل أغنية يشدو بها.

س متفائل. لابد أن يفعل شيئا. يترجم الفكرة الى
عمل. مهما كان العمل متواضعا. لغة العلم تقول : حاول.
أبدا. جرب ... لو تقاعس العلماء ، ولم يتشبثوا بأفكارهم في
عناد ، معرضين عن أصوات الاستهجان والانكار ، ما تقدمت
البشرية أنملة واحدة.

كيف يكون الانسان أقدر على التدمير ، أقوى من
خصمه ؟. حاول يا س أن تلقح بحيوان منوى من أسد بويضة
أنثى من البشر. جرب. ضحك زميله. فكرة خائبة. أفحمه
بنظريات ومعادلات ونتائج بحوث. رد عليه س بأنه سيجرب
ولا ضير من الفشل. أتوقع أن يكون المخلوق الجديد - اذا نجح

التلقيح - أقوى من الانسان العادي. ربما ينمو عقله نموا عادياً ، يطرح أفكارا غير أفكارنا. يؤدي دورا لا نعرفه. ماذا لو جربنا ، ولتكن ما تكون النتيجة ؟. هي المخاطرة بدون تحفظ. لعلنا نهدي مجتمعنا إنسانا أقدر على مواجهة الظلم. فالدماء المسفوكة ترعبني تستفزني.

أكب على الدراسات البيولوجية ، علم الأجنة ، أطفال الأنابيب ، التهجين ، تحسين السلالات ، علم الحيوان. تابع تجارب العلماء ، آخر ما وصلوا اليه. ثم حدد خطته وأقدم على فعلته. أقدم على الخطوة الأولى. تلقيح بويضة بشرية بحيوان منوى من أسد ، وبويضة ثانية بحيوان منوى من ثعلب. وبعد فترة نقل الجنينين في رحمين ، وانتظر في قلق بالغ شهور الحمل ، واستعان بالتحاليل والأشعة ليرتب النتائج ويطمئن. وتم الوضع للوليدتين.

المخلوق الأول شبيه بالانسان وأسماء قاف ، والمخلوق الثاني شبيه بالكلب وأسماء هاء !.

شب قاف ضعيف البنية، توقف عقله عن النمو ، لا يدرك إلا ما يدركه طفل السادسة مع صعوبة النطق. أتى ببعض الأعمال المضحكة والمربكة في أن... يحلو له تجريد نفسه من الثياب. وعزا س ذلك الى الشعر الكثيف الذي غطى جلده. يسير قاف على قدمين كالانسان. يحلو له الضحك المتواصل. واذا أعجبتة كلمة أو جملة ، يظل يرددتها.

أما هاء فمشى على أربع. رأسه شبيه برأس الكلب ، لكنه لا ينبج ، ولا يتكلم مثل قاف. يحلو له القفز كالأرنب وتسلق الأماكن المرتفعة والنوم تحت الكرسي. يستجيب لتوجيهات س. يبدو أن عقله ناضج أكثر من قاف. لكنه لا يستطيع مقاومة رغبته في تمزيق الثياب وتقطيع الورق. يتكئ على إلبته مستندا برجليه الخلفيتين ، أما الأماميتان فيستغلها في إفساد أي شيء يمسك به.

يسجل س انطباعاته حول قاف وهاء. مخلوقان غير
سويين. كيف ينمي القوة العضلية، ويطور قواهما العقلية؟
حاول ذلك ، لكنه فشل تماما. فالمخلوقان لا يضران الغير. لا
يستطيعان مواجهة إنسان يؤذيهما. فقط يتعاركان طويلا
حتى يدمى جسدهما. ويبذل س مجهودا كبيرا كي يفض
الشجار ، ويعزلهما كلا منهما في غرفة صغيرة.

هجرته زوجته. ادعت أن به مسا من جنون ، أو أن قوى
مجهولة تحركه فيأتمر لأمرها !. بكت طويلا في حضن أمها ،
وقررت ألا تعود اليه. في هذه الليلة سهر س الليل بطوله..
يحدق في الجدران ويشخص بناظره غير مصدق أن زوجته
تفارقه. هل كتب عليه أن يعيش مع هذين المخلوقين
الغريبين ؟. الصحف دائما تجلب له الأرق. ما زال الانسان
وحشا ضاريا ، أو هكذا صفة الانسان على تعاقب الأعصر
والدهور. البقاء للأقوى للأعتى للأشد... وهذان المخلوقان ،
كيف يحارب بهما العنف ، وهما شائهان ؟. يقتتلان فيما
بينهما ، ولا يقويان على قتل نملة !. أمسك بعضا غليظة
وأشبعهما ضربا. حتى أدمى ظهريهما. والمخلوقان مستسلمان،
لا يتألمان ، ولا يقاومان. هل تبلى الاحساس ؟.

يبدو أن الجنون أصابه. حكى لصديقه المأساة التي
يعيشها. صمت صديقه. يبدو أنه معتوه. هل يفقد الثقة في
الناس ؟. وإذا فقدها ، فهل يثق بنفسه ؟. نصحه صديقه :

- لا بد أن تفرض المهزلة ..

- كيف ؟.

...

شرد لحظات. سأل الصديق :

- فيم تفكر ؟.

- أتدري ؟... إن قاف وهاء يقتتلان فيما بينهما ، مثل

قابيل وهابيل .. بداية البشرية التبعة. إنها بداية

متشابهة لهذا النوع من المخلوقات. لم أفعل شيئاً نافعا. لا بد
من فض المهزلة. لابد. لابد.

- ولا بد أن أتركك تستريح. إنك مرهق وفي حاجة الى
النوم.

لكن س لم ينم. أحس بالتعاسة. هل يجلب سلالة جديدة
شائنة ، لا هم لها الا الاقتتال ؟. لا بد من فض المهزلة. ولم
يضيع الوقت. تناول مسدسه ، وأطلق على قاف رصاصة،
وعلى هاء رصاصة ثانية.

صوت هازئ يسخر منه ، يضحك شامتا. يأتيه الصوت
من الداخل. ها أنت تمارس لعبة القتل وسفك الدماء.
سيصبح اسمك عنوانا يغرى الصحفيين أن يصدروا صحفهم
به. عناوين كبيرة طبعاً ، بالبنت العريضة ، عناوين حمراء
وسوداء.

جمد في مكانه لا يقوى على ضحك أو بكاء. ولم يملك إلا
أن يطلق على رأسه الرصاصة الثالثة...

حفظني سيد لبيب <http://Archivebeta.Sakhril.com>

سي محمد

رأيت فيما يرى النائم معلمي سي محمد في حفل غريب ، لا أدري لأية مناسبة أقيم وهو يستقبل المدعوين في منزله. كان وسيما أنيقا في جيبته الشخماء التي اعتدت أن أشاهدها عليه ، واقفا بمفرده في مدخل سقيفة مؤدية إلى صحن دار نصف عربي ، مسقف ، مطلي باللون الأزرق الباهت وكان خباء مد فوقه ، لا أدري ، المؤكد أن الضوء هادئ داخله وأشعة الشمس غائبة عنه. وذلك يوحي أن وسط الدار مغطى. الحركة في المنزل حركة هادئة تعبر عن يوم فرح من نوع خاص ، أو كأن الحفل لم يبدأ بعد...

ابتعد من صافحه قبلي ، ودخل وسط الدار ، أتى دوري فمددت له يدي وأنا أباغته بحضوري ، فلم يبد ابتساما ولا رغبة في مصافحتي بل استقبلني بفتور كامل. وظلت عيناه الزرقاوان تحدقان إلي ويدي في يده ، ثم سرعان ما جذبها ، وقال لي كاظما غضبه بصعوبة : «تقول إنني مت»

وحول بصره عني ، بل اتجه بنظره قبالة وأنا جامد أمامه كمن أصابته صاعقة.

... كنت سمعت أنه توفي منذ مدة طويلة ، لكن لا أذكر من الذي أخبرني بذلك ، ثم أذعت الخبر بطبيعة الحال ، كما تلقيته وكما وصل إلي دون زيادة ولا نقصان.

«أن سي محمد معلمنا انتقل إلى رحمة الله».

لم يزد كلمة على كلماته القليلة ، تلك التي رمانى بها
كأنها نبال ، وأنا واقف حائر ، أمامه لا أجسر على الحركة ،
أحدق اليه مشدوها ، فكأنه لم يتوقع قدومي بالمرة ، أتصفح
وجهه فألفاه أجمل مما كان عليه ، عندما كنت تلميذا في
المدرسة ، ازدادت سمرة ، سمرة مشربة بحمرة معلنة أنه
في صحة جيدة ، وعيناه الزرقاوان ازدادت اتساعا وحدة.

عبر عن غضبه في هذه المناسبة البهيجة ، وأنا بين
يديه في أشد الحيرة في حفل هو يرأسه وصاحب الأمر فيه ،
لا برفع الصوت أو العبوس أو تقطيب ما بين الحاجبين ، بل
بعدم الابتسام وعدم الترحيب والصمت الطويل.

كان سي محمد ، كلما التقينا في نهج من أنهج المدينة
يهب الى أو أهب اليه ، ويضعني الى صدره ويعانقني
ويقبلني قائلا :

« علي ابني كيف أنت ؟ »

وذلك بكل محبة. وأنا من ناحيتي أكن له من التقدير
والعرفان بالجميل ما لا يعلم به إلا الله.

... تعالت أصوات نساء من غرفة مقابلة له ، أي ورائي
تماما ، انتبهت الى وجودها عندما انبعثت الأصوات ؛ ثم بان
صوت وارتفع :

« اللطف عليك يا بابا ، اللطف عليك !! »

وتحول إلى بكاء يدمي القلوب. ثم انطلقت إحدى بناته
باكية ، ثم خرجن كلهن إلى الباب ، جميلات كالأقمار ، ويبدو
من زينتهن واحتشامهن في بدلاتهن ذات الألوان الزاهية
أنهن متزوجات ، وأن اليوم يوم فرح وابتهاج.

ثم انطلقت أكملهن قدراً وأتمن جمالا وأكبرهن سناً
بصوت باكٍ رهيف صارخة بلوعة وحرقة :

« اللطف عليك ، ربي يبقيك يا بابا ولا ينحيك علينا !!

ماذا كان مصيرنا اليوم بدونك ، الموت أفضل لنا !! »

أو كلام شبيه به ، وفي هذا المعنى والسياق اعتراني إحساس قوي بالذنب رغما عني وأنا أسمع وأتبع باندھاش كبير كل ما يدور من حولي ، أردت أن أجيب لكن بقيت صامتا كالمأخوذ وبذلت أقصى جهدي لأدفع عن نفسي هذه التهمة التي انتشرت بسرعة أمام عيني لكن دون جدوى ؛ لم ألق العبارات ، فكان لساني شد من الداخل أو فقد ملكة النطق والكلام. تمنيت في ذلك الحين لو انشقت الأرض وابتلعتني !! فكانني المسؤول الوحيد عن الخبر الذي سمعته وأفشيته دون أن أتحقق من مآثاه وصحته... ثم كيف لي أن أتجرأ وأحضر هذا الحفل وأنا أزعم أن سي محمد توفي ، وهو موفور الصحة والنشاط ، أشاهده منتصباً أمامي وأكاد ألسه بيدي ؟؟ لم أدر كيف قلت له بصوت مرتفع محاولاً الإتيان بالحجج والبراهين ، لا أذكر منها الآن الكثير ولا القليل ، حضررتني وقتذاك ، ثم غابت عني وامحت من ذاكرتي دون رجعة.

ربما قلت له :

«سمعت ذلك ، احتملته بحزن كبير في أحشائي ، ثم لم أستطع أن أبقى دون أن أذيعه الى من يعرفونك مثلي» أو شيئاً من هذا القبيل. لكنني نطقت كلمة أحشائي ، هذه الكلمة الناشزة ، أتذكر جيداً عندما فتحت فمي وفُتت بها...

بقيت جامداً في مكاني كأنني انقلبت الى صنم أو صخر ، ولم أدر ماذا أفعل وأنا أشعر بالصف ورائي يزداد طولاً في السقيفة إلى باب الدار... وبيعض الهمسات والهمهمات التي تريد أن تتحول الى جلبة استنكار !

وسي محمد في الحقيقة من أعزّ المعلمين عندي ، أجله

وأحترمه كثيرا، يطوقني بذراعيه، كما قلت، ولو لم أشاهده، وهو مار في شارع من الشوارع أو في نهج من أنهج المدينة، وهو من أحسن المعلمين في المدرسة، والتلامذة يهابونه ويجلونّه.

له أيام الصفاء والحكايات الطريفة الشيقة ، والنكت الذكية النادرة ، كلما طال أو عسر درس من الدروس... يخوض معنا في مشاكل الشباب بكل صراحة، وينصحننا كأبنائه بكل محبة وصدق... وله مع ذلك أيام غضب، بعد أيام الصفاء. ونحن نعلم والمدرسة كلها تعلم، كُرّه سي محمد ليوم الاربعاء، الذي يسميه ونسميه بدورنا «الاربعاء السوداء»، يكون يومها غاضبا، حانقا، دون أي سبب، يعبس ويقطب في وجه كل من اتصل به أو حاول الاقتراب منه ونسي أن اليوم يوم إربعاء.

...ويتشدد علينا في دروس النحو والصرف ويطبقها في نصوص القراءة ويا ويل من يعجز عن إعراب كلمة أو تصريح فعل ٩، فهو يعاقبه عقابا شديدا...

ونسعى من ناحيتنا في فهم الدروس وحفظها تجنباً لغضبه وعقابه الصارم ، ونبحث عن المفردات الصعبة في القواميس ونسأل أصدقاءنا في الأقسام الأخرى وفي نفس الرتبة ، عن الكلمات التي طلب منهم شرحها أو إعرابها. ويدخل علينا بعد فترة الاستراحة ونحن في خوف ووجل ، ويغلق باب القسم من ورائه، فيكفّ دويّنا، وتكاد تتوقف أنفاسنا.. وينطلق قائلا بصوته القوي الدافئ :

«بسم الله الرحمان الرحيم

ونعيده من بعده.

«بسم الله الرحمان الرحيم

«الحاقة ما الحاقة»

«الحاقة ما الحاقة»

نهناً ونرتاح ، وتنزل الآيات برداً وسلاماً على قلوبنا .
ويتابع التلاوة متجهاً إلى مكتبه، معتزاً قوياً في جيبه
الرمادية الداكنة، متأملاً السقف حيناً مصوباً نظره إلى
أرضية القاعة حيناً آخر، مغمضاً عينيه ، خاشعاً ، مالئاً
القسم ذهاباً وإياباً، مرسل الآيات الواحدة بعد الأخرى بجلال
وخشوع ونحن نتبعه بأصوات صارت رخيمة. خاشعة مثل
صوته. ويقومنا معيداً لنا الآيات إذا لمس خلا أو تعثراً في
الإلقاء لبعض منا حتى يصل إلى النصيب الذي قدره ليومنا،
عند ذلك يقول لنا :

«احفظوا على أرواحكم»

فينطلق غلياننا والمصاحف مفتوحة أمامنا نقرأ ونعيد
قراءة ما أملاه علينا بأصوات مرتفعة ، ونكرر ونحفظ ،
ونفلق أعيننا ونعيد ما علق من الآيات في ذاكرتنا ، ونحن
في فرح كبير إذ أغلق معلمنا الباب ، وابتدأ باسم الله
الرحمان الرحيم ، ولم يناد أحداً منا ولم يشرع في امتحاننا.

<http://Archiveeta.Sakhril.com>

عندما استيقظت في الصباح ، كنت منزعجاً إلى أبعد
حدٍ ظَلْتُ كلَّ الصور التي شاهدها في المنام حاضرة في
ذهني، واضحة بكل تفاصيلها ، أنا الذي أنسى في غالب
الأحيان كلَّ الأحلام، بل تتراقص جلها في مخيلتي. ثم سرعان
ما تتلاشى وتغيب عني ولا يبقى لي منها إلا بعض الصور
الخاطفة وبعض الكلمات الغريبة المقتضبة أو الفاقدة الأصل
والمعنى...

محمود بلعيد

و سومرست موم
تعريب
محمد بلحاج صالح

- منزل -

تقع المزرعة في منخفض هضبة مقاطعة «سامرست» شايبر⁽¹⁾ ، وهي عبارة عن منزل حجري عتيق تحيط به المخازن والحضائر ودور أخرى. ونقش فوق الباب تاريخ بنائه بخط أنيق يعود لتلك الفترة العتيقة، وهي سنة 1673، فبدا المنزل الرمادي وقد سفعه الطقس منسجما مع المنظر الطبيعي كانسجام الأشجار المحيطة به. ويقود من الطريق العام الى الحديقة شارع على جانبيه صفان من شجر الدردار (1) يمكن أن يكون مفخرة لقصور كثير من النبلاء. وكان الناس الذين سكنوا هنا رذيثين أقوياء ومتواضعين كالدار ذاتها ، وكان فخرهم الوحيد هو أن الآباء والأبناء قد ولدوا وماتوا فيها وخدموا الأرض المحيطة بها مدة ثلاثة قرون. كان جورج ميدوز رجلا في الخمسين ، وزوجته أصغر منه بسنة أو باثنتين. كانا في صحة جيدة ، ومستقيمين ، وهما في أوج حياتهما ، لهما ابنان وثلاث بنات وسيمون وأقوياء. ولم يكونوا مغترين بكرم أصلهم ، فهم واعون مركزهم وفخورون به. فلم أر - أبدا - أسرة أكثر تلاحما من هذه الأسرة. كانوا سعداء ومجدين ولطيفين. وكانوا جميعا يسلّمون برئاسة الأب، فكانت حياتهم متكاملة مما أضفى عليها جمالا محددا مثال جمال سيمفونية لبيتهوفن ، أو لوحة لتيتان. كانوا سعداء وأهلا لتلك السعادة. ولكن سيد الدار لم يكن جورج ميدوز وإنما أمه. يقولون : إن مقدرتها ضعف مقدرة ابنها.

(1) شجر الدردار هو شجر مغلي له زهر أصفر ، وثمر كقرون الدفلى يفرس على حافة الطريق للزينة والظل (م)

كانت امرأة في السبعين ، طويلة ، معتدلة القامة ،
وجلييلة ، ذات شعر أشيب. وعلى الرغم من تغضن وجهها
الشديد فإن عينيها مازالتا مشعتين وذكيتين. وكانت كلمتها
كالقانون في الدار وفي المزرعة. ولكن كانت ذات فكاهة ،
وحتى لو كانت سلطتها استبدادية فهي أيضا تبقى لطيفة ،
والناس يضحكون لنكاتهما ويرددونها. وكانت امرأة أعمال
فاذا أردت عقد صفقة أحسن منها وجب عليك أن تقوم في
الصباح الباكر قبلها. وكانت شخصية عجيبة تجمع بصورة
غريبة بين العزيمة الصادقة والإحساس اليقظ.

وفي أحد الايام أوقفتني السيدة جورج وأنا عائد الى
المنزل. وكانت في غاية الانفعال. (فنحن لا نعلم أحدا باسم
السيدة ميدوز سوى حماتها ، أما زوجة جورج فتعرف باسم
السيدة جورج) وسألتني: «من تظن أنه قادم إلى هنا اليوم»

« العم جورج ميدوز ، ذلك الذي كان بالصين ».

« أوه ، لقد ظننت أنه توفي ».

« كلنا ظننا أنه توفي ».

<http://Archivebet>

لقد سمعت قصة العم جورج ميدوز عدة مرات ، وقد
أعجبتني لأن لها تأثير الأغنية الشعبية القديمة ، فهي مؤثرة
تأثيرا عجيبا عندما تصادفها في الحياة الواقعية. فالعم
جورج ميدوز وأخوه الأصغر توم أحبا السيدة ميدوز عندما
كانت تعرف باسم إيملي جرين، منذ أكثر من خمسين سنة
مضت، وعندما تزوجت توم، غادر جورج إلى العمل بالبحار.

ومنذ عشرين سنة سمعوا أنه على شاطئ الصين ،
وأرسل اليهم بهدايا ، ثم انقطعت أخباره. وعندما توفي توم
ميدوز كتبت اليه أرملته وأعلمته بالخبر، ولكنه لم يرد.
وأخيرا استنتجوا أنه قد توفي. إلا أنهم منذ يومين أو ثلاثة
اندهشوا عندما تسلموا رسالة من مدير دار البحارة ببورت

سمتُ (1). وظهر أن جورج ميدوز في السنوات العشر الأخيرة قد شله الروماتيزم فقضاها بعصحة ، وهو الآن يشعر بأن أجله قد قرب فأراد أن يرى الدار التي ولد فيها. وقد ذهب ألبرتُ حفيد أخيه في سيارة فوردي إلى بورت سمث ليعود به. وسيصل في ذلك المساء.

قالت السيدة جورج : « تصور أنه لم يعد إلى هنا منذ أكثر من خمسين سنة. فلم ير جورج ابني الذي سيبلغ في عيد ميلاده القادم إحدى وخمسين سنة. »

فسألت : « وما موقف السيدة ميدوز من هذا ؟ ».

« حسن ، أنت تعلم كيف هي. تجلس هناك وتبتسم إلى نفسها، وكل ما قالتة هو: « لقد كان شابا جميلا عندما غادرنا ولكنه لم يكن متزنا كأخيه. » وذلك هو السبب الذي جعلها تفضل عليه أبا ابني جورج. وقالت: « ولكنه ربما اتزن الآن. »

دعنتني السيدة جورج إلى زيارتهم حتى أراه. فعَلْتُ ذلك ببساطة المرأة الريفية التي لم تتجاوز دارها إلى أبعد من لندن. ورأت أن كليتنا قد زار الصلبيين فقد يكون لدينا شيء مشترك لنتحدث فيه. وبالطبع قبلت الدعوة. وعندما وصلت وجدت كل الأسرة مجتمعة ، كانوا يجلسون في المطبخ الكبير القديم، المبلط بالحجارة، والسيدة ميدوز تجلس في كرسيها العادي بجانب النار، معتدلة القامة، وقد أعجبنى ارتداؤها لأحسن ثيابها، بينما جلس ابنها وزوجته وأطفالهما إلى الطاولة. وفي الجانب الآخر للنار جلس عجوز في كرسي وهو منحني. كان نحيفا جدا فيدا جلده فوق عظامه مثل بدلة قديمة عريضة أوسع من جسمه ، وكان وجهه متفغضا وشاحبا وفمه أندرد ، فصافحته.

وقلت : « أنا مسرور برجوعك سالما يا سيد ميدوز. »

(1) بورت سمث : ميناء جنوب إنجلترا.

فصح خطني : « نقيب ».

قال حفيد أخيه البرت : « مشى على رجليه إلى هنا.
فعندما وصلت إلى الباب الخارجي طلب مني أن أوقف
السيارة لأنه يريد أن يمشي ».

وقال السيد ميدوز :

« ويجب أن تعلم أنني لم أغادر فراشي مدة سنتين. فقد
حملوني ووضعوني في السيارة. فظننت أنني سوف لا أقدر
على المشي مرة أخرى. ولكن عندما رأيت أشجار الدردار تلك،
تذكرت أبي الذي كان معجبا بها، فشعرت بأنني أستطيع
المشي. لقد مشيت في الطريق المؤدي إلى الدار منذ اثنتين
وخمسين سنة عندما سافرت ، الآن مشيت راجعا مرة أخرى.

فقالت السيدة ميدوز : « أسمى ذلك سخافة ».

« لقد كان ذلك مفيدا لي. فأنا أشعر بأنني أحسن الآن ،
وأقوى مما كنت عليه منذ عشرين سنوات ، وسوف أعيش أكثر
منك يا إيملي ».

<http://ArchiveSakbi.com>

فأجابت : « لا تكن متأكدا جدا ».

وأظن أن لا أحد دعا السيدة ميدوز باسمها الأول مدة
جيل. فأثار ذلك فضولي قليلا ، لأن الرجل العجوز كان
متحررا معها. نظرت إليه وابتسامة ذكية تلوح في عينيها ،
وكان هو يتكلم معها ويبتسم بليته الدرداء. فكان منظرهما
يثير العجب.

هذان العجوزان الذان لم ير أحدهما الآخر مدة نصف
قرن. وتفكر أنت في ذلك الزمن الماضي كله الذي أحبها فيه
وأحببت هي غيره. فتساءلت : هل يتذكران ما شعرا به
عندئذ، وماذا قال كل منهما للآخر ؟ أتعجب إذا كان يبدو له
الآن أنه لأمر غريب أن يترك لتلك المرأة العجوز دار أبائه ،
ميراثه الشرعي ، ويعيش حياة المنفى.

فسألت : « هل تزوجت يا نقيب ميدوز ؟ » .

فقال بصوته المتهدج وهو يبتسم : « لست أنا الذي يفعل ، فالكثير الذي أعرفه عن النساء يمنعني من ذلك .

فردت عليه السيدة ميدوز : « ذلك ما تقوله . لو ظهرت الحقيقة فسوف لا أفاجا بأن أسمع بأن لك عددا من النساء السود في شبابك » .

- ليسوا سودا في الصين يا إيملي ، كان عليك أن تكون معلوماتك أدق من هذا ، فهم صفر .

- قد يكون ذلك هو السبب الذي جعلك أصفر ، فعندما رأيته ، قلت لنفسني إنه مصاب باليرقان (1)

- لقد وعدت بالآ أنزوج أحدا غيرك يا إيملي ، ومازلت وفيا لوعدي » .

قال هذا لا إثارة للشفقة ، ولا إظهارا للاستياء ، وإنما مجرد أن يصرح بحقيقة ، كما يمكن لرجل أن يقول :

- لقد قلت أنني سأمشي عشرين ميلا ومشيتها »

كان هناك اثر للرضا في الحديث .

فأجابت :

- قد تندم على ذلك لو فعلت .

تحدثت قليلا مع الرجل العجوز حول الصين .

- لا يوجد ميناء في الصين لا أعرفه أحسن من معرفتك لجيب معطفك فحيثما يمكن للسفينة أن تسير ذهب . وأستطيع أن أجعلك تجلس هنا كامل اليوم مدة ستة شهور دون أن أقص عليك نصف ما شاهدته في زمامي » .

فقالت السيدة ميدوز ساخرة ، ولكن ابتسامة ودية ما

(1) اليرقان Jaunisse «حالة مرهية تمنع الصفراء من بلوغ المعنى بسهولة ، فتختلط بالدم فتصفر بسبب ذلك أنسجة الحيوان » (م) .

زالت تبدو في عينيها :

- شيء واحد لم تفعله يا جورج ، حسبما يبدو لي ،
وذلك هو أن تكسب ثروة.

- أنا لست الرجل الذي يحتفظ بالمال. أتحصل عليه
وأنفقه ، ذلك هو شعاري. ولكنني أستطيع قول شيء واحد
عن نفسي وهو : لو أمكنني أن أعيد حياتي من جديد لأعدتها،
ولا أرى كثيرا من الناس سيفعلون.

فقلت : « لا ، بكل تأكيد.

نظرت إليه باعجاب واحترام. كان رجلا عجوزا مشلولا،
أرد ، فقيرا ولكنه نجح في الحياة ؛ لأنه تمتع بها.

وعندما غادرته سألتني أن أزوره في اليوم التالي إذا
كنت مهتما بالصين فسوف يقص علي القصص التي أرغب
في سماعها.

وفي صباح اليوم التالي فكرت في أن أذهب وأسأل إذا
كان الرجل العجوز يسمح بزيارتي له ، فمشيت في الشارع
المحفوف بأشجار الدردار الجميل. وعندما وصلت إلى الحديقة
رأيت السيدة ميدوز تلتقط الزهور. فحييتها فوقفت
وحضنها مملوء بالزهور البيضاء ؛ فنظرت إلى الدار فرأيت
الستائر قد أسدلت، ففوجئت لأن السيدة ميدوز تحب أشعة
الشمس.

وكانت دائما تقول : « يكفي العيش في الظلام عندما
تدفن ».

فسألتها :

- كيف حال النقيب ميدوز ؟

فأجابت :

- كان دائما رجلا برياً ، فعندما أخذت ليزي إليه كوبا
من الشاي هذا الصباح وجدت ميتا.

- ميت !!

- نعم ، مات أثناء نومه. فأنا أقطف هذه الزهور لأضعها في الغرفة. وأنا مسرورة لأنه مات في تلك الدار القديمة ، فالموت في الدار يعني الكثير لآل ميدوز.

لقد وجدوا صعوبة كبيرة في إقناعه بالذهاب الى الفراش. فقد كان يحدثهم عن كل الأشياء التي حدثت له في حياته الطويلة. وكان مسرورا بالعودة الى داره القديمة. ومعتزا بالمشي في المردون مساعدة. وتفاخر بأنه سيعيش مدة عشرين سنة أخرى. ولكن القدر كان رحيما ، فالموت كتب علامة التوقف في المكان المناسب.

شمّت السيدة ميدوز الزهور البيضاء التي تحتضنها وقالت :

- أنا مسرورة برجوعه ، فبعد زواجي من توم ميدوز ، ومغادرة جورج ، لم أكن على يقين من أنني قد تزوجت الرجل المناسب.

تعريب <http://Archivebeta.Sakhril.com>

محمد بلحاج صالح

- مثنى البكاء -

لم نكن على موعد ، ولكنني ذهبت إليه فجرا وأصداء
الشمس تأتي من الشرق السأهي. لم يكن من سبب واضح
يدعوني لتلك الزيارة ولكنني ذهبت. أمشي وأفكر فيه. إنه
صديقي رغم أنه لم يكن تربي. فهو قد جاوز الستين وأنا
أسير نحو الكهولة بخطى حثيثة ، ولكننا نلتقي كثيرا
فنتحدث ونحزن ونضحك. يكلمني عن آمنيات لم تتحقق
فيكاد يموت أسى وأكلمه عن آمنيات لا أظنها تتحقق فاكاد
أذهب في الحلم، ينظر إلى القمة التي جاء منها فيسهو
كالمغشي عليه من الدهشة وأنظر إلى الهاوية التي أذهب
إليها فأفزع فزع الذاهب إلى المشنقة ولكنني الآن أفكر فيه
فأرى وقار الشيب وحكمة السنين وتجاعيد الزمن الذاهب.

حين وصلت ، لم يكن في المنزل. كان على العتبة جالسا،
وجهه بين يديه في اتجاه الشمس القادمة كالمخلص. لقد كان
يبكي. يرتفع نواحه صافيا كأيام الربيع ، ثم يتموج فيردد
هسهسة كالتذكر المريح ، فيخفف الصوت كأن قد سكت
فيأخذه سكون كانبعاث الفكرة ، ويرفع رأسه فتظهر دموعه
خطوطا حمراء في لون الأفق ، ولا يلبث الصوت أن يرتفع
فجأة كالرعد.

وقفت أنظر وأسمع ، وأفكار كثيرة تولد كالصباح.
مرت الآن سنون طويلة ولم أبك ولو مرة واحدة ، أحزان
كثيرة مرت بي ، واشتهيت أن أبكي فلم أفعل. ولم أكن ذكيا
لأفعل ذلك. كنت أحتزن الحزن جرحا لا يندمل. لو بكيت

لذهب ما بي في النّواح الذّاهب والدّموع الدافئة. لماذا لا أبكي ولو مرة واحدة فأولد من جديد. وراققتني الفكرة.

جلست أمام صديقي الشّيخ ، وجهي بين يديّ. وارتفع صوتانا في تناغم عجيب ، ووجدتني ، وصوتي يرافق صوته صعودا ونزولا ورجعا وتموجا والدّموع تسحّ ساخنة ، أنتشى بذلك كأنّني في حلم ممتع .. كانت الشمس تطلع قرصا وهجا، وكنا نبكي كما لم نبك قطّ فتذهب أحزاننا وهما كأنّنا نغني.

ربّما تسألون عن سبب بكاء صديقي الشّيخ. ولكنني لا أعرف ذلك ، ولم يكن السبب شيئا مهماً بالمرّة. فالناس يكون لأسباب شتّى ومتناقضة في كثير من الأحيان. المهم أنّي بكيت معه لنفسه.

أحمد العاجي



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>